جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

الدقة التعبيرية
والمفارقة التصويرية
في معلقة زهير بن أبي سلمى

الدكتور
عمر محمد عبد الرحيم محمد حمزاوي
مدرس الأدب والنقد
في كلية اللغة العربية أسيوط

العدد الثامن عشر
للعام ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م
الجزء الثامن
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٤م
الترقيم الدولى ISSN 2356-9050

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ،،،

فهذا بحث أدبي فى قصيدة من قصائد الشعر القديم الجديد القديم فى تاريخه ، والجديد فى عطائه الدائم ، بحث فى معلقة زهير بن أبي سلمى، بعنوان " الدقة التعبيرية والمفارقة التصويرية في معلقة زهير بن أبي سلمى" وهو قراءة جديدة لهذه القصيدة تكشف أول ما تكشف عن التشارب والتلاؤم بين فصول القصيدة وأقسامها ، كما تكشف عن التناسب بين البيت والذى يليه مما عرف في النقد الحديث بوحدة القصيدة .

وقد أردت من هذا البحث أن أؤكد نفي التهم التى اتهم بها شعرنا القديم من التفكك والاضطراب وعدم الترابط مما صدر عن عجلة فى الحكم والدرس، ثم تناقله الناس تناقل المسلمات .

ثم كشفت عن دقة زهير، دقة اختياره للألفاظ المناسبة فى التعبير عما يريد ، وعن دور اختياراته فى تسجيل وتصوير الحدث الذى يتحدث عنه .

كما كشفت عن وجود تقنية فنية فى شعره كان لها دور متعاظم فى قصيدته ، تلك التقنية هي المفارقة التصويرية التى ساعدت زهيرًا على توضيح غرضه ومراده .

وقد قسمت بحثي هذا إلى قسمين :

القسم الأول : عبارة عن : إطلالة عامة على المعلقة شملت الحديث عن: الأحداث التى اكتنفت القصيدة = وقد اقتصرت فيها على ما رأيته دافعًا من دوافع القول = كما شملت نظرة عامة على القصيدة، تكشف عن الترابط بين أقسامها، وعن مراد زهير بكل فصل من فصولها.

والقسم الثاني: من البحث عبارة عن: سياحة تفصيلية فى جنبات المعلقة ، وقد شملت أولا: خطاب زهير لبني عبس وكان خطابه لبني عبس فى فصول المعلقة الثلاثة الأول، وقد دفعني لاعتبار هذا؛ صلة هذه الفصول بأحداث وقعت لبني عبس وشملت ثانيا: خطابه لبني ذبيان والأحلاف ، وقد استهل كل فصل من فصلي المعلقة الرابع والخامس بتصريح عن هذا الفريق، وكان آخر كلامي عن ختام المعلقة وفصلها الأخير المشتمل على الحكم وقد كشفت عن مدى صلة هذه الحكم بأحداث القصيدة، وانبثاق كل حكمة منها من روح القصيدة .

وقد انتهجت النهج البياني التراثي المعهود؛ المنطلق أولًا مما ذكره الشراح قديمًا ، وكان أهم ما اعتمدت عليه فى الكشف عن جنبات القصيدة كتب أصول اللغة وفقه اللغة، وبها استطعت أن أكشف عن معان عديدة لم يذكرها الشراح من قبل ، وقد أعانني على الوصول إلى الغاية التي أنشد؛ رجوعي إلى كتب البلدان عندما يعوز المقام إليها.

وكانت الرواية المعتمدة عند التبريزي في شرحه للقصائد العشر هي الرواية المعتمدة عندي؛ إذ لم يخطئني فيها الوقوف على ما في المعلقة من ترابط وتناسب.

وإلى الله أضرع بحمده وشكره والثناء عليه، ومنه أستمد التوفيق وأطلب المزيد، وإليه أبرأ من الحول والقوة، وأصلي وأسلم على سيد الرسل وآله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إطلالة عامة على القصيدة

أولا: الأحداث التى اكتنفت القصيدة

اضطرمت حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان، وكانت أطول حرب فى الجاهلية، وأشدها ضغينة، وأبعدها غاية فى طلب الطائلة [1]وكان السبب الذى هاجها أن قيس بن زهير ، وحمل بن بدر تراهنا على داحس والغبراء أيهما يكون له السبق وكان داحس فحلًا لقيس بن زهير، والغبراء حجرًا لحمل بن بدر فلما شارف داحس الغاية؛ وثب فى وجهه فتية حمل بن بدر فردوه عن الغاية .

وثارت الحرب بين عبس وذبيان ابنى بغيض فبقيت أربعين سنة لم تنتج لهم ناقة ولا فرس لاشتغالهم بالحرب، فقتل قيس بن زهير ابنًا لحذيفة بن بدر، فاحتمل الناس دية مالك وقبضها حذيفة وسكن الناس، ثم عدا حذيفة على مالك بن زهير فقتله، وأبى أن يرد الدية التي قبضها فقال جار لهم : بئس ما فعلتم بقومكم؛ قبلتم الدية ثم رضيتم بها وغدرتم.

ثم نهضت بنو عبس وحلفاؤهم إلى ذبيان وبنى فزارة، فالتقوا بذى المريقب، وقتل من بني فزارة نفر كثير، ومنهم ضمضم أبو الحصين . ثم إن ذبيان تجمعت فهربت بنو عبس ، ولحقهم بنو ذبيان فأعطتهم عبس رهائن من أبنائهم ، وتكافّ الناس.

ولما هلك سبيع بن عمرو (حافظ رهائن بني عبس) أطاف حذيفة بابنه مالك وخدعه حتى دفعهم إليه فأتى بهم اليعمرية فقتلهم .فلما بلغ ذلك بنى عبس أتوهم باليعمرية، فقتلوا من ذبيان اثنى عشر رجلًا، منهم هرم بن ضمضم أخو الحصين، ثم التقوا يوم الهباءة؛ وكان لعبس على ذبيان، وقتل فيه حذيفة بن بدر وأخوه حمل بن بدر ومثلوا بحذيفة كما مثل هو بالغلمة .

---

(١) الرسائل لأبي عثمان الجاحظ ، ص٣٥٣ ، ط دار ومكتبة الهلال ــ بيروت .

واستعظمت غطفان قتل حذيفة فتجمعوا ، وعرفت بنو عبس أن ليس لهم مقام بأرض غطفان فخرجوا منها ، ونزلوا ببني سعد بن زيد مناة . ثم إن بني سعد غدروا بجوارهم وأرادوا أكلهم فبلغ ذلك بني عبس ففروا ليلًا وقدموا ظعنهم، ووقف فرسانهم بموضع يقال له الفروق ، وأغارت بنو سعد ومن معهم من جنود على محلتهم فلم يجدوا إلا مواقد النيران، فاتبعوهم حتى أتوا الفروق فإذا بالخيل والفرسان، وقد توارت الظعن عنهم فانصرفوا، ومضى بنو عبس فنزلوا ببنى ضبة، فأقاموا فيها ثم رجعوا إلى قومهم فصالحوهم وسعى الناس بينهم بالحمالة .

فلما توافوا للصلح ، وقفت بنو عبس بـ "قطن" وأقبل حصين بن ضمضم فقتل رجلًا من بني مخزوم بأبيه ضمضم، فأبت عبس وحلفاؤهم الصلح وقالوا لا نصالحكم وقد غدرتم بنا غير مرة، ثم سفرت السفراء بينهم فاصطلح الحيان إلا بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان، فخرجوا حتى وردوا غدير قلهى فسبقهم بنو عبس إلى الماء فمنعوهم حتى كادوا يموتون عطشًا ودوابهم فأصلح بينهم الساعيان.[١] لكن حصين بن ضمضم لم يدخل الصلح وحلف لا يغسل رأسه حتى يقتل رجلًا من بني عبس ولم يطلع على ذلك أحدًا .

وبعد أن حملت الديات نزل رجل عبسي بالحصين فقتله الحصين، وبلغ ذلك بني عبس فخرجوا للحارث بن عوف ليقتلوه، فبعث إليهم بمائة من الإبل ومعها ابنه ، وقال للرسول قل لهم "أللبن أحب إليكم أم أنفسكم " ، فقالوا بل نأخذ الإبل ، ونصالح قومنا. ويتم الصلح . [٢]

---

(١) انظر: العقد الفريد جـ٦ ص١٧ : ٢٥ ـ ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ط الأولى ١٤٠٤هـ .

(٢) انظر : شرح القصائد العشر للخطيب التبريزي ص٩٩، تعليق: السيد محمد خضر ، ط مكتبة الثقافة الدينية.

ثانياً: نظرة إجمالية في المعلقة

بدأ زهير بن أبى سلمى[١] معلقته متفجعًا على ما آلت إليه الديار التى هجرها أهلها؛ فرارًا من جحيم الحرب، ونجاة بأنفسهم خشية أن يحيق بهم القتل أو الطعن، وامّحت تلك الديار ولم يبق لها أثر ، وخلفت الوحوش أهل الديار وسكنت تلك المساكن، وأنست بتلك الديار فكانت الوحوش ما بين قائمات ونائمات، وماشيات مقبلة ومدبرة ، صاعدة ونازلة، وما كانت لتأنس بها لولا خرابها وخلوها من بني الإنسان .

وكان هجران السكان لتلك الديار قد استمر زمنًا طويلًا "عشرين سنة " لذا لم يستطع زهير أن يتعرف على أماكن تلك الديار إلا بعد طول تفرس وطول بحث وإعمال الفكر والظنون .

وقد تعرف من تلك الديار على تلك الأمارات الدالة على كرم أهلها وسخائهم وعلى سيادتهم ومجدهم، تعرف على حجارة الموقد التي ينصب عليها القدر، وعلى ذلك النهير الذى يحيط بالدار؛ ومازال على حالته الأولى لم يتثلم، ولم تفعل فيه الأيام فعلها

ومادامت الديار ديار سيادة ومجد فقد حق لزهير أن يطيل البحث عنها وأن يشق على نفسه باذلًا المحاولات المضنية من أجل الوقوف عليها والوصول إليها ، ولذلك لمّا تعرف عليها وتأكد منها هتف محييًا وداعيًا لها أن تكون على أحسن ما يتمنى لديار من يحب من النعيم والسلامة .

---

(١) هو زهير بن ربيعة بن قرط ، نسبه في غطفان، ويقال إنّه لم يتّصل الشعر في ولد أحد من الفحول في الجاهليّة ما اتّصل في ولد زهير، وهو من شعراء الطبقة الأولى ، وعدَه عمر بن الخطّاب أشعر شعراء الجاهلية . انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ١٧١/١ ، ت/ أحمد محمد شاكر – ط دار الحديث بالقاهرة ، ١٤٢٣هـ .

يقول زهير بن أبى سلمى في معلقته:

أمـــن أم أوفـــى دمنـــة لم تكلـــم

بحومانـــة الـــدراج فـــالمتثلم

ديـــار لهـــا بـــالرقمتين كأنهـــا

مراجـــع وشـــم فـــى نواشـــر معصـــم

بهـــا العـــين والآرام يمشـــين خلفـــة

وأطلاؤهـــا ينهضـــن مـــن كـــل مجـــثم

وقفـــت بهـــا مـــن بعـــد عشـــرين حجـــة

فلأيـــا عرفـــت الـــدار بعـــد تـــوهم

أثـــافيّ ســـفعًا في معـــرس مرجـــل

ونؤيـــا كجـــذم الحـــوض لم يتـــثلم

فلمـــا عرفـــت الـــدار قلـــت لربعهـــا

ألا انعـــم صـــباحًا أيهـــا الربـــع واســـلم

بدأ زهير حديثه متفجعًا على ما وقع لهذه الدور ، هذه الدور التي خربتها الحرب ، ولك أن ترجع إلى ما ذكرت في الأحداث التي اكتنفت تلك القصيدة يـوم غدر ببني عبس مجاوروهم، وأرادوا أن يفتكوا بهم، فخرجوا بعد أن قدّموا الظعن ووقفوا بموضع يقال له الفروق، وأغار بنو سعد على دورهم فما وجـدوا غيـر مواقد النيران ، وهذا ما ذكره صريحًا زهير فى معلقته فى فصلها الأول، عنـدما ظل يبحث ويتفرس ديار أم أوفى ولم يجد منها إلا دمنة لا تبين ووجد مـع هـذه الدمن " أثافي سفعـًا " .

ولذلك رأيت أن خطاب زهير في الفصول الثلاثة من المعلقة خاصا ببنـي عبس ، هذا الفصل الأول ينص صراحة على خلو الديار من أهلها ، وهو ما كان

من عبس يوم تركوا ديارهم وخرجوا من أرض غطفان متجهين إلى اليمامة ، ثم تركوها ونزلوا ببنى سعد بن زيد مناة ، ثم كان فرارهم يوم أراد هذا الحي أن يأكلهم ولم يتركوا خلفهم إلا مواقد النيران .

ويوم فروا من بني سعد بن زيد بن مناة قدَموا الظعن ووقف الفرسان بالفروق ، وتوارت الظعن بعيدًا عن أنظار المطاردين وهو ما صرح به زهير في فصل معلقته الثاني والذى بدأه بقوله :

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن

تحملن بالعلياء من فوق جرثم

ثم لما غدر حصين بن ضمضم بقتل الرجل العبسي الذي نزل عليه، بعد تحمل الحمالات وإتمام الصلح، وما كان من اجتماع رجال عبس وخروجهم؛ يريدون قتل الحارث بن عوف؛ مما دفع زهير بن أبي سلمى إلى مخاطبة عبس التي تريد قتل الرجل المصلح الساعي في الخير، مذكرًا بفعاله ومآثره فقال فى بداية الفصل الثالث فى معلقته :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما

تبزل ما بين العشيرة بالدم

هذه الفصول الثلاثة مرتبطة تمام الارتباط بالأحداث التاريخية التي أحاطت بالمعلقة، بل ومنطلقة منها .

وكذلك بقية فصول المعلقة فالفصل الرابع منها يتوجه زهير بخطابه للأحلاف وذبيان الذين غدروا ببني عبس غير مرة (كما هو مذكور قبل) ولذلك سيأتي خطابه لهم :

ألا أبلغ الأحلاف عني رسالة :

وذبيان هل أقسمتم كل مقسم

أي هل أقسمتم جميع الأقسام لتفعلن مالا ينبغي (كما سيأتي بيانه مفصلًا) .

ثم كان خطابه فى الفصل الخامس لرجل من بني ذبيان وهو الحصين بن ضمضم الذى غدر أكثر من مرة في موقف صلح (كما مر) فقال له زهير :

لعمرى لنعم الحي جر عليهم

بما لا يواتيهم حصين بن ضمضم

ولما كانت غدرات ذبيان وبالًا عليها؛ إذ كانت فى كل مرة تنكل بهم عبس شر تنكيل ، لما كان الأمر كذلك ذكرهم زهير بالحرب وآثارها المدمرة عليهم هم قبل غيرهم وأن غدرهم سيعيد الحرب قوية تطحنهم طحنا وتثمر لهم ثمرات مرة وتخلف أجيالًا ملؤها الشؤم والشر .

ثم ختم قصيدته بأبيات من الحكمة قال عنها الثعالبي :

" تشبه كلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهي غرة حكم العرب ، ونهاية في الحسن والجودة، تجرى مجرى الأمثال الرائعة الرائقة "[1]، وهي حكم قوية الصلة بالأحداث كما سيأتي تفصيله وبيانه.

وهذا الارتباط الوثيق بأحداث القصيدة يؤكد وحدة موضوعها وعدم تفككها كما كان متعارفا عليه في أوساط الدرس الأدبي منذ زمن بعيد، وسيأتي كل هذا مبينا مفصلا أثناء تحليل المعلقة.

****

والآن ندلف إلى الحديث عن تلك المعلقة بالبيان والتفصيل

(١) خاص الخاص ــ الثعالبي ــ ص٩٦ ط دار مكتبة الحياة ــ بيروت ، لبنان ، وانظر: لباب الآداب للثعالبي ص١٠٨ ــ ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، الأولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .

سياحة تفصيلية في جنبات المعلقة

أولاً : خطاب زهير لبني عبس

أمـــــن أم أوفـــــى دمنـــــة لم تكلـــــم

بحومانـــــــة الـــــــدراج فـــــالمتثلم

ديـــــار لهـــــا بـــــالرقمتين كأنهـــــا

مراجـــــع وشـــــم في نواشـــــر معصـــــم

يعبر زهير هنا عن انزعاجه بما يشاهد، وقد بدا هذا الانزعاج ــ أول مـــا بدا ــ في ابتدائه معلقته بالاستفهام متسائلًا عن ديار أم أوفى التي لم يجد منها إلا دمنة خرساء لا تبين أي : "أمن منازل أم أوفى ، وهذا على التفجع"[١]

وهل تكون الدمنة أو الحوائط أو المنازل مبينة غير خرساء ؟ مراد زهير بإبانتها: عمارتها أي كانت عامرة تجيب السائل وتغيث الملهوف وتطعم الجائع ، ثم صارت إلى ما صارت إليه من خراب وسوء حال، والعرب وأهل الحكمة مـــن العجم تجعل كل دليل قولًا، ولما سكتت عن جواب السائل وإغاثة الملهوف وإطعام الجائع عدّ زهير ذلك خرسًا .[٢]

واختياره لأم أوفى دون غيرها من أسماء الصواحب له دلالته فقد ســبق الحديث عن غدر بني ذبيان مرّات، وكادت عبس بعد الغدر بها أن تطيح بالصــلح وتعيد الحرب بعد الغدر بها، وفى ذكر هذا الاسم تــذكير بالوفــاء الــذى يجــب

---

(١) شــرح القصائــد السبــع الطوال الجاهليات ــ ابن الأنباري ــ ص٢٣٧ ، ت/ عبدالسلام هارون ــ ط دار المعارف ــ الخامسة .

(٢) انظــر :الكامــل في اللغة والأدب ــ أبو العباس المبرد ــ جــ٢ ص٦٩ ، ت/ محمد أبــو الفضل إبراهيم ــ ط دار الفكر العربي ــ القاهرة ، الثالثة ، ١٤١٧هــ / ١٩٩٧م .

الاتصاف به "وكلمة أم أوفى أصل معناها الوفاء، ولا وفاء أوجب عند الناس من الوفاء بعهد صلح نبذ الناس الحرب به وأمن بعضهم بعضًا " . (١)

ومقدمة القصيدة تتحدث عن الديار التي خربت بعد إعمار، وتوحشت بعد أنس، وبئست بعد نعمة؛ لذلك صح أن يكون التعبير بأم أوفى التي كانت زوجًا له ثم طلقها وكان قد أنجب منها أربعًا ماتوا جميعًا ؛ فاختيارها بالذكر دون سواها كأنه يشير بها إلى الفناء الذى تلحقه الحرب بأهلها فأم أوفى لم يبق لها ولد، وكذلك الحرب لا تبقى ولا تذر، وكأن زهيرًا يخاطب المتحاربين أن يتركوا الحرب ويبتعدوا عنها كما طلق هو أم أوفى وبانت منه . (٢)

ومما يدل على حسن تلك الديار ورفعتها فيما مضى من أمرها؛ الموضع الذى اختير لإقامتها " بحومانة الدراج فالمتثلم " وهما موضعان بالعالية منقادان، وكونه بالعالية ليكون ظاهرًا للقصّاد، وهذا من أمارات الكرم والسيادة ، ومنقادان : الطريق المنقاد الذى وضح صوبه أي مطره، فهو مكان ممرع ولذلك سيضطر أهله أن يحفروا حول تلك الدار " نؤيا كجذم الحوض " يستقبل تلك المياه النازلة من السماء، ويكون حاجزًا حول الدار يمنع من السيل ، ولما كان الموضع على هذه الصفة جعل الأرض من حولها " ربعًا " عبر عنها زهير بقوله " فلما عرفت الدار قلت لربعها " ، ثم كرر هذه الكلمة تأكيدًا على أن هذه الدور كانت دور إقامة واستقرار ، ودعا لها بما اعتاده فيها من النعمة والسلامة والأمن ، فقال " ألا انعم صباحًا أيها الربع واسلم " .

---

(١) الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء ــ د/ محمد أبو موسى ص٣٤٠ ، ط مكتبة وهبة ــ الأولى ــ ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م .

(٢) انظر : مختارات من نصوص الأدب الجاهلي ، ص١٧٥ ، د/ مصطفى أحمد عبداللاه ، ود/ ممدوح البدري .

وكان من أمارات النعمة والثراء أيضًا ما ذكره زهير من أن أم أوفى لم يكن لها تلك الدار فحسب بل كان لها ديار أخرى بالرقمتين ، وإذا تذكرنا تنقل بني عبس وفرارهم أكثر من مرة ومن أكثر من مكان وجدنا قول زهير واقعيًا يتحدث عن واقع كان موجودًا بالفعل ، ولم يكن الكلام يلقى دون وعي كما يظن من يقرأ الشعر الجاهلي عجلًا وعلى غير مهل.

هذه الديار بالرقمتين من أمارات النعمة والثراء والرقَة ، فالرقمة : الروضة ، والرقمتان : الروضتان ، إحداهما قريب من البصرة ، والأخرى بنجد ، ورقمة الوادي : مجتمع مائه فيه [١]

إذن كانت بيوتهم حسنة، وكانت حياتهم خضرة نضرة!!

ولكن هل ظلت تلك الديار على حالها الحسنة ؟ كلا ، أصابها ما أصاب الدار الأولى ، صارت أثرًا بعد عين ، من جراء الحرب المهلكة المفنية الطاردة للنعمة والأمن والاستقرار " كأنها مراجيع وشم في نواشر معصم " وترجيع الوشم والكتابة أن يعاد عليها السواد مرة بعد أخرى [٢] ، أي لم يبق منها إلا رسم كـ ذلك الرسم الذى يخطه الواشم على ذراع الناس .

إذن تهدمت الدور وامّحت الأبنية وغادرها أهلها وصارت سكنًا للوحوش وفى هذا يقول زهير :

بهـا العين والآرام يمشين خلفة

وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

العين : جمع عيناء وهي البقرة الوحشية ، والآرام جمع ريم وهو ولد

(١) لسان العرب ــ رق م ــ جـ١٢ ص٢٥٠ ط دار صادر بيروت ، الثالثة ١٤١٤هـ.
(٢) لسان العرب ٨ / ١١٥ .

الظبي، ويمشين خلفة معناه: إذا ذهب فوج يخلفه فوج، أو بمعنى مختلفة إحداها مقبلة والأخرى مدبرة وهذه صاعدة وتلك نازلة"، وقال الأصمعي : الآرام : الظباء البيض الخالصة البياض ، الواحدة ريم ، قال : وهي تسكن الرمال وهذا النوع من الظباء يقال إنه ضأنها لأنه أكثرها شحمًا ولحمًا "[١] ، وأطلاؤها أي أولاد البقر والظباء ساعة تولد إلى نصف شهر ، ويقال للصغير من كل شيء .[٢]

فالوحوش كما ترى – فى الدور التى كانت عامرة بالأمن والسلام ثم صارت خربة بالحرب والنزاع – تتحرك بحرية مطلقة آمنة مطمئنة لا يفزعها شيء ــ وقد استقرت استقرارًا كاملًا ، ووضعت فى تلك الأرض حملها ، وصغارها يقومون ويتحركون هنا وهناك، ويتنقلون بين جنبات المكان، ولا يكون هذا أبدًا فى مكان يعمره إنسي ، وهو إشارة إلى خلوها تمامًا من كل مظاهر الحياة الإنسانية ، فالوحش: خلاف الإنس ، وتوحش: فارق الأنيس[٣] ، وكل شيء لا يستأنس بالناس وحشى وكل شيء يستوحش عن الناس فهو وحشي .[٤]

وبعد أن حالت الدور وتغيرت أراد زهير أن يزورها ويتذكر أحوالها بعد أن مر على خلوها أكثر من عشرين سنة فأشكلت عليه وما عرفها إلا بعد بطء ومشقة ، يقول زهير :

وقفت بها من بعد عشرين حجة

فلأيا عرفت الدار بعد توهم

---

(١) حياة الحيوان الكبرى للدميرى ١ / ٥١٤ ــ ط دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان ــ الثانية ١٤٢٢هـ .

(٢) القاموس المحيط ،لمجد الدين الفيروزآبادي – مادة: (ر ي م) ط مؤسسة الرسالة للطبع والنشر والتوزيع – بيروت لبنان، الثامنة ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م .

(٣) مقاييس اللغة أحمد بن فارس ٩١/٦ ت عبدالسلام هارون– ط دار الفكر١٣٩٩ه/ ١٩٧٩م.

(٤) لسان العرب ٦ / ٣٦٨ .

ولماذا لم يعرفها إلا بالظن وبعد بطء؟ لامّحاء كل ما يدل عليها من معالم؛ إذ لم يبق من معالمها شيء إلا ما استعصى على الفناء، مثل:

أثـــافي ســـفعا في معـــرس مرجـــل

ونؤيـــا كجـــذم الحـــوض لم يتـــثلم

هذا كل ما بقى من معالم الدور العامرة البهيجة؛ الأثافى: الحجـارة التـى تجعل عليها القدر وكانت هذه الحجارة سودًا (سفعًا) تثير الاشـمئزاز، وتنقـبض منها النفس ، والنؤى الذي تم حفره فى ذلك الموضع الغليظ الصلب، وهذا يجعله يبقى دهرًا لا يتغير؛ ولذلك "لم يتثلم" واستعصى على الامحاء ، وعندما رأى زهير ما تبقى من آثار تلك الدور، وتحقق منها عرف الدار وهتف محييًا وداعيًـا لهـا فقال :

فلمـــا عرفـــت الـــدار قلـــت لربعهـــا :

ألا انعـــم صـــباحًا أيهـــا الربـــع واســـلم

وقف النقاد أمام هذا البيت وسابقه ومدى ملاءمة ألفاظهما لمعناهما فألفاظ البيت الأول غريبة؛ لما كان المعنى المقصود جزلًا لكونه غير معـروف مجهولًـا حاله ، وألفاظ البيت الثاني رقيقة ورشيقة وحسنة لما كان معناه معروفًا[١]

إذًا عرف زهير الدار وما عرف منها إلا ما استعصى على الفناء ــ كمـا مر بك ــ وتلك الدار لم تصبح دارًا ولا ربعًا، فالربع المنزل فى الربيـع ، وكفـى بذلك حسنًا !!ولكنه أسماها ربعًا باعتبار ما كانت عليه من حسن الحال.

---

(١) انظر : تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر ــ لابن أبي الأصبع ١٩٥ ، والطـراز ــ ليحيى بن حمزة العلوي ٣ / ٨٠ ، المكتبـة العصـرية ــ بيـروت ، لبنـان ــ الأولـى ١٤٢٢هـ .

" وانعم صباحًا " تحية أهل الجاهلية، ولما كانت الغارات تفجؤهم فى الصباح أكثروا من هذا الدعاء " ومعناه : لقيت يا ربع نعيمًا فى صباحك ، والدعاء فى الظاهر للربع، وفى المعنى لمن كان يسكن الربع ممن يألفه ويحبه"[١] ، ومعنى اسلم : سلمك الله من الآفات .

وهذا الحي ومن كان يعيش فيه لم يكن دارًا ولا ربعًا ولم يلق فى الصباح نعيمًا، بل فجأته الغارات وفر أهله ــ كما مر ــ ولم تسلم هذه الدار من الآفات ، ولكن زهيرًا قال ما قال؛ حكاية لما كان يحدث منه قبل شمول الحرب لهذه الأرض، وليري المتحاربين ويذكرهم بحال تلك الدور قديمًا لعلهم يحنون إلى الحياة الوادعة الناعمة الآمنة والسالمة من الآفات.

وهكذا رأينا زهيرًا يصور تلك الدور بصورتين متناقضتين تمامًا صورة لها يوم كانت ناعمة سالمة بهيجة وكان هذا قبل الحرب ، وصورة أخرى بعد الحرب بائسة موحشة قفرة خربة ، وهذا أدعى إلى الانحراف والميل عن تلك المناظر البائسة، والضد يظهر حسنه الضد،

أبدت مقابحهم محاسن فعله

والضد يعرف فضله فى ضده[٢]

وهذه التقنية الفنية التى استخدمها زهير هي المفارقة التصويرية استخدمها " لإبراز التناقض بين طرفين متقابلين أو بين نقيضين لتجلية كل منهما فى أكمل صورة " . [٣]

---

(١) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، ص٢٤٣ .

(٢) البيت للقاضي التنوخي ــ حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء ــ الزوزني ص٣١٧ ، ترقيم آلي المكتبة الشاملة .

(٣) عن بناء القصيدة العربية الحديثة ، د/ علي عشري زايد ، ص١٣٠ ــ ط مكتبة ابن سينا للطباعة والنشر ، ط الرابعة ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .

ثم جاء فصل المعلقة الثاني واصفًا رحلة الظعن متنقلة من موضع إلى موضع ، وقد سبق ذكر أن عبسًا يوم فرت من سعد بن زيد بن مناة؛ أركبوا ظعنهم وقدموا مسيرها على مسيرهم، ولما لحقوهم بالفروق وجدوا رجالهم وفرسانهم وقد توارت الظعن عنهم فرجعوا عنهم ولم يقاتلوهم ، فهل كان وصف رحلة الظعن وصفًا واقعيًا يقصد به إلى هذا الذى حدث من بني عبس؟ .

والواضح أن الظعن سرن بجد وأعنفن الركائب حتى يتمكنّ من التباعد عن مكان الخطر لذلك لم تتأخر امرأة واحدة عن الركب ومن ثم أتى زهير في بيته الأول بحرف الجر " من " زائد للتوكيد أو يمكن اعتبارها غير زائدة وتكون للتبعيض ، فالركب إذن سار بهمة ونشاط وإن شئت فقل بإشفاق وخوف أن يلحق به بنو سعد الذين بدا أنهم قصدوا لسبى النساء حتى إذا رأوا أن النساء فاتتهم عادوا إلى دورهم ، يقول زهير :

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن

تحملن بالعلياء من فوق جرثم

ومما يدل على أن ركب الظعائن أوغل فى البعد؛الفعل الذي ابتدأ به الفصل " تبصر " فالتفعل يقتضي التعمل والتصنع، ومحاولات النظر تلو المحاولات؛ لعله يعثر على بغيته وجعل الفاعل خليلًا له أي صديقًا ومحبًا تخللت صداقته ومحبته القلب فصارت خلاله أي: فى باطنه، وإنما قيل له ذلك لأن خلته مقصورة عليه فليس فيها لغيره متسع ولا شركة [١] ، فمثل هذا الصديق الصدوق هو الذى يصبر على طلب صديقه، ويعمل بصره مرات تلو مرات دون أن يشاريه أو يماريه ، و"تحملن" بمعنى ترحلن فيها أيضًا معنى التفعل والتعمل والتكلف وكيف لا يكون هذا وعبس مطاردة لو انتظرت الصبح لصبّحها الجيش وأعمل فى رجالهم القتل

(١) انظر : لسان العرب ١١ / ٢١٧ .

وفى نسائهم السبي ، وكلمة "العلياء" ذكر الشراح أنها بلد بعينها وذكر الخليل أن العلياء: رأس كل جبل أو شرف واستدل ابن فارس بـــــبيت زهير [(١)] والــذى يعنيني الإشارة إليه أن الظعائن فى ترحلهن لجأن إلى السير فى شواهق الجبــال طلبًا للتحصن والتحرز وحتى يستطعن النجاة بأنفسهن من المطاردين الملاحقين.

ومن المعلوم دائمًا أن الساري والمترحل يحرص على أن يمــر بأمــاكن المياه حتى يتزود منها لرحلته ولأن حول الماء ناسًا ومجتمعًا يكونون له أنسًــا ، ولكن هذه الرحلة رفضت المرور بموقع المياه (جرثم) وذلك لأنه كان ماء لبني أسد ، وأسد هذه من الأحلاف التى حالفت ذبيان وحاربت فى صفّها ضد عــبس ، فما كان لرحلة الظعائن إلا أن تتخذ رؤوس الجبال مانعًا لها من الوقوع بين أيدي أعدائهم كالفرائس.

ولم يكن " جرثم " وحده الذى حرصت الرحلة على الابتعــاد عنــه بــل حرصت الرحلة أيضًا على الابتعاد عن "القنان" إذ هو جبل لبني أســد. إذًا: كــان اختيار طرق السير اختيارًا عن علم، وحرص الجميع فيه علــى التخفــي وعلــى التباعد عن مواقع الخطر يقول زهير :

جعلــن القنــان عــن يمــين وحزنــه

وكــم بالقنــان مــن محــل ومحــرم

وقد ذكر زهير السبب فى تباعدهم عن القنان ، فهو إن كان فيه أصــدقاء لا يعتدون عليهم إذ لهم حرمة تمنع من العدوان فإن فيه أعداء ليست لهــم ذمــة تمنع ولا حرمة، هــؤلاء الأعداء لو ظفروا ببنــي عــبس وظعــائنهم لأهلكــوا رجالهــم ولسبــوا نساءهم .

---

(١) انظر : مقاييس اللغة ٤ / ١١٤ .

والحرص على هذا التخفي والتستر والتباعد عن الطرق الواضحة المعهودة هو الذى جعل زهيرًا يحمل نفسه وصديقه حملًا متكلفًا فى طلب هذه الظعائن ومع ذلك لم يستطع رؤيتهن ولا التعرف على الطرق التى سلكنها، وهذا من دلائل مشقة الرحلة وعندما تتعرض نساء مثل هاتيك النساء ــ وسيأتي فى الأبيات القادمة وصفهن بصفات الحسن والنعومة والتنعم ــ لهذه المشقات فهذا أمر بغيض إلى قلب كل رجل يحرص على نسائه وعلى ألا يزجَ بهن فى المهالك والمعاطب ، ومن هنا يجب عليه أن يتجنب تلك الحروب التى تضطر الناس إلى ورود هذه المسالك .

هذا هو الذى أظن زهيرًا أراده من ذكر هذه الرحلة الشاقة المهلكة .

وعالين أنماطًا عتاقًا وكلة

وراد الحواشي لونها لون عندم

عالين وأعلين بمعنى، وأنماطًا جمع نمط وهو ثوب من صوف يطرح على الهودج أي طرحوا الأنماط على الهوادج[١] ، ولا يكادون يقولون نمط إلا لما كان ذا لون؛ من حمرة أو خضرة أو صفرة، فأما البياض فلا يقال له نمط . [٢]

إذًا هذه النمط كانت ملونة بلون الحمرة أو غيره وكانت هذه النمط أيضًا عالية غير خفيضة وكانت " عتاقا " أي كريمة وكانت الكلة ــ وهي ستر رقيق ــ وراد الحواشي أي تميل إلى اللون الأحمر ، وكل هذه الصفات للأنماط والكلة من ألوان التجمل والتزين، ومن دلائل الثراء والتنعم ، مع هذا كله يراوغن يمينًا وشمالًا ويلجأن إلى رؤوس الجبال والشرف حتى لا يقعن فرائس فى أيادي أعدائهن ، ثم كل ألوان الجمال هذه ولّت مذعورة مفارقة للديار والاستقرار ولم

(١) انظر : القاموس المحيط ص٦٩٠ .

(٢) لسان العرب ٧ / ٤١٧ .

تبق خلفها سوى مواقد النيران والأثافيَ السفع بما تثير من كآبة واشمئزاز !!

وإذا كانت رحلة الظعائن تخطت فيما سبق عقبتين كؤودين فإن العقبات الكؤود لم تنته بل أمامهن مخاطر أخرى فهذه عقبة "السوبان" وهو واد يقع فيه ماء جرثم [1] ، فهو لصيق لديار أسد المتحالفين ضد عبس ، فماذا تفعل الظعن تجاه هذا الوادي الخطير؟.يصور زهير ما فعلت الرحلة فيقول :

ظهرن من السوبان ثم جزعنه

على كل قيني قشيب ومفأم

وورکن فی السوبان يعلون متنه

عليهن دل الناعم المتنعم

ولأنهن يسرن فى جبل يبدو من الأبيات أنه يحيط بهذا الوادي، أو يلتف حوله من أكثر من جانب لذلك عرض لهن غير مرة، وفى كل مرة يقطعن فيه مرحلة تلو الأخرى ، فقوله : ظهرن من السوبان : معناه خرجن منه ، ومعنى قوله ثم جزعنه عرض لهن مرة أخرى فقطعنه ، ووركن فى السوبان يعلون متنه معناه ارتفعن فوق ما غلظ من أرضه، وملن فى السوبان وخلفنه وراءهن .

هذه الحركات اللولبية أتت بها هاتيك النساء الفارات من جحيم الحرب ، وما كان أغناهن عن كل هذه المراوغات لو أن قومهن اجتنبوا الحرب وسالموا إخوانهم وبنى عمومتهم !!

لاسيما وأنهن نساء منعمات فى مراكبهن ويكسوهن الدلال المنبثق من النعومة والتنعم ، وكان الواجب على الرجال أن يباعدوا بينهن وبين ما يسمم أجواء حياتهن بهذه المرارات القاسية .

---

(١) انظر : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ــ أبو عبيد الله البكري الأندلسي ١ / ٢٥٧ ــ ط عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ .

ولاحظ فى الأبيات ما يدل على كمال تمتع هذه النساء بكل وسائل الراحة فالركائب عليها النمط والكلل الأنطاكية الملونة الجميلة، والنساء يجلسن فوق رحال وتحت كل رحل منها فراش "غبيط" قيني هذا الغبيط جديد " قشيب " وواسع " مفأم " .

هذا فى ظاهر أحوالهن ، وأما فى باطن أحوالهن فقد كانت نفوسهن تشف عن الصفاء والملاحة تمثل ذلك فى قول زهير "عليهن دل الناعم المتنعم " وانظر كلمة عليهن وما تدل عليه من الظهور والوضوح وكلمة " دل " التى تفيد تكسر النساء فى ملاحة وحسن، وقد علتهن نضارة النعمة ، والتنعم وهو تفعل من النعمة .

ولم يقف زهير عند هذا الحد فى وصفه للظعائن وما عليهن من جمال وزينة ونعومة بل واصل وصفه قائلًا :

كأن فتات العهن فى كل منزل

نزلن به حب الفنا لم يحطم

العهن الصوف المصبوغ، شبه ما تفتت من العهن الذى علق على الهودج بحب الفنا ، والفنا شجر ثمره حب أحمر وفيه نقط سود. ولم يكن هذا الفتات فى موضع دون آخر بل شمل المنازل جميعها التى نزلت بها الظعائن، وهذا من أمارات كثرة الأصواف المعلقة على الهوادج.

ولاحظ إلحاح زهير على ذكر الأشياء الملونة الدالة على كمال زينة ، ولاحظ أيضًا إلحاحه على ذكر اللون الأحمر وهو أزهى الألوان وأجملها ، ولاحظ احتراسه من إفساد هذه الصورة الجميلة الحمراء بقوله " لم يحطم " لأن حب الفنا إذا كسر ظهر له لون غير الحمرة !!

وإذا كان زهير قد حرص على إثبات مراوغات الظعائن فى الأمكنة المختلفة " العلياء ، جرثم ، القنان ، السوبان " فإنه أيضًا صور لنا حيلهن فى الخروج فى وقت يغفل فيه الأعداء عن أعدائهم ، فقال زهير :

بكرن بكورًا واستحرن بسحرة

فهن ووادي الرس كاليد فى الفم

فالنساء خرجن مبكرات وسرن فى وقت السحر أي لم ينتظرن ضوء النهار إذ هو وقت يصحو فيه الناس ويصعب عليهن النجاة بأنفسهن إن هن تأخرن للضياء ، وفى سيرهن قصدن واديًا معلومًا لهن لا يخطئن الوصول إليه كما لا تخطئ اليد الوصول إلى الفم حين الطعام ونحوه ، هذا الوادي هو وادي الرس وكأنه كان الغاية التى تتغيا الظعائن الوصول إليه !!

وفى المراد بالرس ووادي الرس لى وقفة فالشراح ذكروا أن الرس ماء ومحل لبني أسد ، وعلى هذا لا يمكن أن يكون للظعائن غاية؛ يراوغن ويأتين بالحيل من أجل الوصول إلى واد خاص بأعدائهم المتربصين بهم !!

ولكني وجدت بغيتي فى كتب اللغة وفى كتب البلدان ، أما كتب اللغة فقد ذكر ابن فارس أن الرس واد معروف فى شعر زهير ، ولم يخص به قومًا ، بني أسد أو غيرهم، وأما صاحبا القاموس واللسان فقد ذكرا لها عدة معان فهي بئر كانت لبقية من ثمود كذبوا نبيهم ورسوه فى بئر ، أو هي من الأضداد بمعنى الإصلاح والإفساد ، وتأتي بمعنى الدس، والحفر.(١)

ويذكر الاصطخري فى حديثه عن " ميافارقين " أنها بلدان صغار متقاربة فى المقدار، خصبة كلها، عامرة كثيرة الخير، وميافارقين يعدها قوم من الجزيرة إلا أنها دون دجلة ، وعدّ من الأنهار التى تجري فى هذه البلاد نهر الرس ، وهو

(١) انظر : القاموس المحيط ص٥٤٩ ، ولسان العرب ٦ / ٩٧ .

نهر عذب طيب.[١]

ويؤكد هذا الكلام اليعقوبي فيقول: ومن قاليقلا ابتداء الأنهار العظام أولها الفرات ... والثاني " الكر " يخرج من مدينة قاليقلا ويلتقى مع الرس ويصيران نهرًا واحدًا.[٢]

نستخلص مما قيل فى كتب اللغة أن الرس واد خفيض قصد الظعائن الاختباء فيه من أعدائهن،والأفضل الاعتماد على ما جاء فى كتب البلدان فالحديث عن الرس واضح وظاهر من أنه نهر عذب طيب يمده نهر آخر كبير " الكر " يخرج من مدينة عدها بعض المؤرخين من الجزيرة إذ هي قريبة من نهر دجلة.

ويؤيد هذا الرأي تأييدًا كاملًا ما جاء فى بيتي زهير الآتيين وهما الأخيران من هذا الفصل :

فلما وردن الماء زرقا جمامه

وضعن عصى الحاضر المتخيم

وفيهن ملهى للطيف ومنظر

أنيق لعين الناظر المتوسم

فقول زهير " الماء زرقا جمامه " يدل على أنه نهر عذب طيب ، وعند هذا النهر أقامت الظعائن ووضعن عصا التسيار، واستقر بهن المطاف، وازدادت حالهن حسنًا على حسن، وأكثرن من اللهو البريء الجميل ، وبدا لهن منظر معجب. ومهما حاول الناظر أن يتفرس ويدقق النظر والفكر فيهن وفى جمالهن فلن يخطئه فى كل نظر أن يقع على ما يبهجه .

---

(١) المسالك والممالك ــ الاصطخرى ص١٨٩ ــ ط دار صادر ، بيروت ــ عام ٢٠٠٤م .

(٢) البلدان ــ لليعقوبي ص٢٠٧ ــ ط دار الكتب العلمية، بيروت ــ الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

كيف لا وقد تبدل حال الظعائن ، ووردن ماء مجتمعًا غزيرًا صافيًا لا يكدره مكدر ، واسترحن من هذه المطاردات القاسية والمغامرات المتحايلة على النجاة، والفرار من المطاردين، واستشعرن الأمن والسكينة والدعة بعد الخوف والحرب الطاحنة .

ولاحظ الفرق بين ورود هذا الماء الصافي الأزرق الجمام وبين ما يأتي من "إيراد غمار تفرى بالسلاح وبالدم" ، ولاحظ آثار هذا الورود المبهج والمعجب والمسعد فى مقابلة الإيراد القادم من إنفاذ المنايا ثم "الإصدار إلى كلأ مستوبل متوخم" فرق كبير بين حياة وحياة، بين حياة ناعمة آمنة، وحياة بائسة ملؤها السلاح والدم ، ومثل هذا يجعل القارئ يضع يديه على مفارقة تصويرية أخرى تبرز التناقض بين حال وحال؛ متقابلين أو متضادين، وتجلي كل منهما فى أكمل صورة .

****

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما

تبدّل ما بين العشيرة بالدم

سبق الحديث عن دعوة زهير لخليله أن يبحث ويجدَ في البحث عن قافلة الظعائن (التي أبدع في وصف جمالها، ونعومتها وهناءتها ، واجتهد الصاحب في رد القافلة أو في ملاحقتها ببصره ولكنه عجز عن رؤيتها وردها. (وهي رمز الحياة الوادعة الآمنة التي انتهت وتبدلت باشتعال الحرب).واستحالت عودة تلك القافلة المحملة بالظعائن الجميلات ذوات الدل والدلال.

هذا العجز عن رؤية القافلة أتبعه زهير بحديثه عن الممدوحين اللذين كانا في منتهى القدرة على السيطرة على الأحداث الكئيبة التي ملأت تلك البلدان بالشرور والمآسي وقد عبر عن ذلك بقوله: (تبزّل ما بين العشيرة بالدم).

وإذا دققت النظر في تلك المفردات وقفت على سوء الحال الذي نزل بتلك المواطن، انظر إلى قوله "تبزل بالدم"[١] ومعناها تشقق الجرح، وخرج منه الدم متفجرا، وتلك صورة كئيبة صورة الجراح تسيل منها الدماء متدفقة، جراح القوم بل جراح الأهل والأقارب وجراح العشائر.

كانت الحياة هانئة آمنة مطمئنة، ثم تعكر صفوها بحرب طال أمدها حتى تبدل كل شيء في الوجود، ثم تم الصلح بين العشائر وعاش الناس آمنين وادعين متساندين متعاونين متكافلين، وقل ما شئت من معاني الأخوة والقرابة التي أجملها وأوجزها الشاعر في قوله:(ما بين العشيرة)تركها مبهمة بغير تحديد حتى يسبح الذهن واسع السباحة في البحث عن هاتيك العلائق الطيبة التي تكون بين الإخوان والأحباب والأقارب.

هذه الحياة التي انفجرت بالشرور والمآسي وانقلبت أحوالها وتبدلت؛ ما الذي يعيدها إلى ما كانت عليه من استقرار وهناء وأمن ووداعة؟لا يقدر على ذلك إلَّا مساعي ومآثر عظيمة لا يطيقها إلَّا أهل الشرف والفضل وهو ما يدل عليه قول زهير بدء أبيات المدح : "سعى ساعيا غيظ بن مرة" .

وانظر إلى تدقيقه واختياره للفعل سعى الدالّ على معاني: "العَدْو، والعمل، والقصد"[٢]، و"أصل السعي في كلام العرب: التصرف في كل عمل كما قال الزجَّاج[٣] فالممدوحان عملا، وجدَا في العمل، وقصدا إلى مرادهما بنيّة خالصة وعزيمة ثابتة" أي سعيا في الصلح وجمع ما تحملا من ديات القتلى.

---

(١) جاء في لسان العرب وتبزل الشيء إذا تشقق قال زهير .... البيت

(٢) انظر لسان العرب مادة: سعى

(٣) نفسه مادة: سعى

ثم كان تكرار تلك المادة (سعى) في ذكره للفاعل "ساعيا" وهو لفظ يدل على ثبوتهما واستمرارهما في أعمال البر والخير كما تدل على أن الرجلين كانا من أهل الشرف والفضل وهو ما ألمح إليه ابن منظور في قوله "العرب تسمى مآثر أهل الشرف والفضل مساعي"(١).

بعد بيان هذا البيت أعود بك إلى الخلف حيث مقدمة القصيدة حينما قال زهير:

فلما عرفت الدار قلت لربعها

ألا انعم صباحا أيها الربع واسلم

وانظر كيف لرجل مثل زهير أن يذكر ما قد تظنه تناقضًا كبيرًا، حيث لم ير من الدار سوى دمنة وأثافي سفعًا، ونؤيا، ولم يعرف الدار إلَّا بعد توهم ثم تراه يختم المقدمة بجعل تلك الديار ربعًا ="بما فيها من الدلالة على الإقامة والحلول في زمن الربيع"(٢)= ويدعو له بدوام النعمة والسلامة!! .

زهير في الحقيقة يتحدث عن ما كانت عليه من حال حسنة وهناءة ونعمة، وإذا كان خليله الذي خاطبه بقوله: "تبصر خليلي هل ترى..." لم يستطع أن يرى الأمل في الخير قادمًا إلى تلك البلاد، حيث ولت الظعائن؛ فإن هذين الساعيين أقرّا تلك الحياة الهانئة السعيدة وأرجعا الأمن والسلام إلى تلك الديار وردّاها ربعًا معروفًا كما كانت!!

وقد نسب زهير الساعيين إلى جدهما الأعلى "غيظ بن مرة"، وإذا كانت كتب التاريخ والسير لم تذكر شيئًا عن هذا العظيم الشريف فإننا نستطيع أن نفهم حاله من شعر زهير في قصيدة أخرى حيث يقول عن آباء الممدوحين، الذين

---

(١) لسان العرب، مادة: سعى

(٢) انظر مقاييس اللغة ر ب ع

توارثوا المجد كابرا عن كابر:

ومـــا يـــك مـــن خـــير أتـــوه فإنمـــا

تـوارثـــــه آبـــــاء آبـــــائهم قبـــــل

وهـــل ينبـــت الخطـــى إلَّـــا وشـــيجه

وتغـــرس إلَّـــا في منابتهـــا النخـــل[1]

إذن هذا سعي عظيم، قصد إليه عظيمان، ورثا المجد والعظمة آباء عـن جدود، تلك العظمة وهذه الفخامة ملأت زهيرًا دهشًا وإعجابًا فهتف قائلًا:

فأقســمت بالبيـــت الـــذي طـــاف حولـــه

رجـــال بنـــوه مـــن قـــريش وجـــرهم

يمينـــا لـــنعم الســـيدان وجـــدتما

علـــى كـــل حـــال مـــن ســـحيل ومـــبرم

أراد زهير أن يشهد بعظمة الرجلين، فلم يأت بالكلام مرسلًا وإنما أتى به مؤكدًا بالقسم "فأقسمت" ولاحظ أنَّه اختار لفظ القسم دون "الحلف" والقسم أبلغ من الحلف كما ذكر العسكري[2].

وجعل زهير قسمه بالكعبة المشرفة "بالبيت" وهو أعظم ما يعظمه العـرب بل هو سر عظمة العرب وتكرمة قريش[3].

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمـــى ص ٥١ – شرحه واعتنى به: حمدو طماس – ط دار المعرفة – بيروت لبنان.

(٢) الفروق اللغوية – أبو هلال العسكري– ص٥٦ ط دار العلم والثقافة والنشـــر والتوزيـــع– القاهرة.

(٣) انظر شرح القصائد السبع الطـــوال الجاهليـــات لابـــن الأنباري ص ٢٥٣ ت عبد الســـلام هارون– ط دار المعارف.

وزاد القسم تفخيما وتعظيمًا حيث أردف بعد كلمة "بالبيت" أوصافًا له "طاف حوله"، وجعل الطوّافين "رجال بنوه" وليست كلمة رجل ورجال ذلك اللفظ المبهم الدارج الذي يستخدم في مقابلة المرأة أو النساء ، وإنما الرجل هو الذي جمع الأوصاف الحسان والخلال الكريمة.

وقوله "من قريش وجرهم" وهما القبيلتان اللتان تولتا أمر البيت الحرام والقيام على خدمته ومنعه[١] وإن كانت جرهم أسفَت في أخرياتها وأفسدت في البيت؛ فإن قريشًا ظلوا يعظمون البيت "ولم يفارقوا مكة منذ خلقوا، ولم يدعوا ميراثهم عن إسماعيل عليه الصلاة والسلام"[٢].

وقد جاء في تعظيم البيت وتعظيم أهله: "أهل مكة أهل الله، والحجاج زوار الله؛ فالكعبة بيت الله الذي جعله الله مثابة للناس، وحطة للخليل، وحلة للذبيح، وقبلة لسيد ولد آدم وخاتم الأنبياء – صلى الله عليه وسلم – وكعبة لأمته التي هي خير الأمم، وقد كانت العرب لا تبني بنيانا مربعا تعظيمًا للكعبة وقد كانت تحلف ببيت الله...." [٣].

وأنت ترى بذلك كيف عظّم زهير منقبة الساعيين بهذا القسم بالبيت المعظم، وأردف ذلك ذكر أعظم عبادة في البيت وهي الطواف به، وتلا ذلك ذكره لأهل الله الذين هم أهل مكة.

ثم أراد أن يأتي بجواب القسم "لنعم السيدان وجدتما" ولم يأت به حتى سبقه تأكيد للقسم بقوله "يمينا"، وإذا نظرت إلى جواب القسم رأيته مبدوءًا بفعل

---

(١) انظر شرح المعلقات التسع للشيباني ص ١٩٢. ط مؤسسة الأعلمي بيروت لبنان.
(٢) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ص ٢٥٨.
(٣) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب– الثعالبي ص ١٦ ط دار المعارف – القاهرة.

المدح "نعم" واختار فاعله "السيدان" والسيد: المالك لتدبيرالسواد "[١]وإنما سمي سيدا لأنَّ الناس يلتجئون إلى سواده" [٢]أي: عدده الكثير، وهذا أعظم ما يحتاج إليه العرب، وذكر ابن منظور أن السيد يطلق على "المالك، والشريف، والفاضل، والكريم، والحليم، ومحتمل أذى قومه، والرئيس، والمقدَّم"[٣] ولا يسوّد عند العرب إلَّا من حاز خصال الشرف كما هو معروف في كتب الأدب ووصايا العرب. [٤]

وأردف هذا الفاعل الشريف بقوله "وجدتما" الدالة على أن ما كان فيهما من مكارم؛ إنما كان سجية وطبعا، "على كل حال من سحيل ومبرم". فمناقب الساعيين الحائزة على قصبات السبق دائمة في كل وقت لا تتخلف، ودائمة على كل حال ؛ في حال الاستعداد، أو المفاجأة بأمر لم يحكماه[٥] وفي سوء الحال وحسنه، وفي اليسر والعسر، وفي الرضا والسخط ؛ لا تتغير أعمالهما بتغير الأحوال، ولا تنقبض أيديهما إذا شحت النفوس، ولا ينوءان بأذى القوم ولو تتابع عليهما الأذى، وقد أوحى بهذه المعاني قوله "سحيل ومبرم" وهما كنايتان عن الأمر السهل والشديد"[٦].

وقد وفق الشاعر توفيقا بعيدًا في استخدامه كلمة "كل" الدالة على الاستغراق، كما وفق في إتيانه بكلمة "حال" الدالة على التغير والتحول، فالساعيان

---

(١) مقاييس اللغة ص ١١٤/٣ ابن فارس ت عبد السلام هارون ط دار الفكر.

(٢) الفروق اللغوية ص ١٨١.

(٣) لسان العرب ٢٢٩/٣.

(٤) شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية، محمد بن محمد بن حسن شرَّاب، جـ ٣ ص ١١، ط مؤسسة الرسالة- بيروت – لبنان – ط الأولى.

(٥) انظر المعاني الكبير في أبيات المعاني- ابن قتيبة جـ٢ ص ٨٨٠ نسخة مصورة لدار الكتب العلمية بيروت –لبنان- الطبعة الأولى.

(٦) شرح القصائد العشر ص ١٠٨

سيدان؛ بل نعم السيدان في كل ما يعتريهما من أحوال، كما كان موفقًا في الدلالة على تمكن السيدين من نفوسهما باستخدامه لفظ "على" الدال على الاستعلاء والذي يشي بالتمكن في جميع الأحوال.

بل كان أكثر توفيقًا حينما ذكر جواب القسم مؤخرًا عن فعله، وبعيدا عنه؛ فقد أطال بعد قسمه دون ذكر جوابه؛ حتى أتى به في البيت الذي يليه؛ ليدل بذلك على علو قدر الممدوحين وشدة الإعجاب بهما وهو ما يتسق مع مراد الشاعر في تفخيم أمرهما.

وليس تأخير الجواب إلى البيت الثاني عيبًا كما يعده العروضيون "التضمين"(١)، وإنما فيه تشويق، وجعل النفس تتطلع إلى معرفة الجواب، فإذا جاء بعد اشتياق النفس إليه وتطلعها إلى إدراكه؛ وقع فيها موقعًا حسنًا، وتمكن عندها أفضل تمكن.

ثم ذكر سبب تعظيم هذين السيدين في قوله:

تداركتما عبسا وذبيان بعدما

تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

"أي نعم السيدان وجدتما حيث تداركتما أمر هذين الحيين بعدما تفانوا في الحرب فأصلحتم بينهم"(٢).

---

(١) وهو أن يكون البيت الثاني مكملًا للبيت الأول في معناه، وذلك كأن يرد المبتدأ أو الفعل في البيت الأول، ثم يأتي الخبر أو الفاعل أو المفعول به أو ما شابهه في البيت الثاني. انظر: علم العروض والقافية – عبدالعزيز عتيق – ص١٦٧ – ط دار النهضة العربية ، بيروت، لبنان.

(٢) شرح المعلقات التسع ص ١٩٤.وانظر توضيحا في خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي ٧/٣ تحقيق وشرح عبد السلام هارون ط مكتبة الخانجي القاهرة الطبعة الرابعة ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

ويعنيني أن أقف عند مفردات البيت فقوله تفانوا أي اقتربوا من إفناء بعضهم بعضًا وهو تفاعل يقتضي التكلف والتعمل في الحرب والاقتتال، وقد أتت الكلمة الأولى في البيت "تداركتما" مناسبة لتلك الكلمة فهي أيضًا من التفاعل الذي يقتضي التعمل والتكلف وهي دالة على الجهد المبذول من أجل الصلح فهما لم يدخرا وسعًا ماليًا أو نفسيًا أو ذهنيا أو بيانيًا؛ إلَّا بذلاه من أجل إقرار الصلح (والبيت التالي يشي ببعض هذه المعاني).

وهذا دال على أن الرجلين كانا مصرّين على إتمام الصلح، وأنهما بذلا في ذلك كل مرتخص وغال، وكيف يكون إقرار صلح = بعد حرب دامت عشرات السنوات، وراح جراءها عشرات القتلى، وتطلّب الأمر آلاف الإبل عقلًا لقتلى الحرب= سهلًا ميسورًا ؟ كلا لابد أنَّه كان أمرًا شديدًا يحتاج إلى جهد ومشقة وهو ما عبّرت عنه الكلمات في البيت.

وأما منشم وعطر منشم فقد ضرب به المثل في الشؤم أو في الشر العظيم[١] فقالوا أشأم من منشم، وأشأم من عطر منشم، وقد اختلف الرواة في لفظ هذا الاسم ومعناه، وفي اشتقاقه، وفي سبب المثل[٢]، والذي أريد أن أقف عنده ما ذكره الميداني من أن المنشم هو الشر بعينه، أو هو ما يسميه العطارون: قرون السنبل وهو سمّ ساعة، وما نقله عن ابن السكيت من أن العرب تكني عن الحرب بعطر منشم ؛ فدقوا بينهم عطر منشم كناية عن الحرب، والعرب تستخدم هذا التركيب كثيرًا[٣].

---

(١) انظر نهاية الأرب في فنون الأدب- النويري ٣/٢٠ - ط دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة- الأولى ١٤٢٢هـ .

(٢) انظر تفصيل هذا في مجمع الأمثال- للميداني ١/٣٨١- ت محمد محيي الدين عبد الحميد- ط دار المعارف - بيروت لبنان .

(٣) انظر المستقصى في أمثال العرب- الزمخشري- جـ ١ ص ١٨٤ ط دار الكتب العلمية - بيروت لبنان - الثانية ١٩٨٧م.

ومن العلماء من ذكر أن منشم امرأة عطارة من همدان كانوا إذا تطيبوا من ريحها؛ اشتدت الحرب وكثر القتلى، فصارت مثلًا في الشر[١]، وجاء في لسان العرب "دق الشيء يدقه إذا أظهره، ومنه قول زهير ودقوا بينهم عطر منشم أي أظهروا العيوب والعداوات، ويقال في التهدد لأدقن شقورك أي: لأظهرن أمورك"[٢].

إذًا: هذا التعبير يدل على ظهور العيوب والعداوات، ويدل على اشتداد الحرب بعد اشتعالها، وعلى كثرة القتلى في صفوف الفريقين وهذا كله يصلح معه صيغة التفاعل في الشطرين (التفاني، والتدارك).

ولكن كيف أمكن السيدان تدارك الفريقين؟ وكيف أمكنهم إصلاح الأمر؟ أمكنهم الصلح بعد أن بذلا فيه الأموال، وحثا عليه بالقول كما ذكر التبريزي [٣] عقيب البيت:

وقد قلتما إن ندرك السلم واسعًا

بمال ومعروف من القول نسلم

وكلمة (إن) في البيت تدل على صعوبة الأمر الذي أقدما عليه، في هذه الحال وهذه البيئة التي امتلأت بالأحقاد والدمن، وبذل المال من السخاء، ومعروف القول من البيان، وهما صفتان من صفات التسويد عند العرب؛ فإن العرب كانوا يسودون على خصال الخير ومآثر الشرف[٤].

---

(١) لسان العرب ٥٧٧/١٢.

(٢) لسان العرب ٤٢١/١٠.

(٣) انظر: شرح القصائد العشر ص ١٠٨، ١٠٩.

(٤) انظر البصائر والذخائر- أبو حيّان التوحيدي ٢١٢/٦. ت وداد القاضي ط الأولى – دار صادر بيروت ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

ولاحظ أنَّه اختار من القول: المعروف، وجعله مقدمًا على المنعوت بـــه، وهو المناسب لحال القوم الذين امتلأت قلوبهم بالبغضاء، وأظهر بعضهم عيـــوب بعض؛ إذْ القول المعروف هو "الذي تقبله القلوب ولا تنكره"(١).

ولاحظ اختيار زهير لكلمة "السلم" دون ما سواها من أخواتهـــا الشـــبيهة بها؛ لما فيها من الدلالة على العافية والســـلامة مـــن الأذى والعيـــب والـــنقص والفناء(٢). ونعت هذه الكلمة بقوله "واسعًا" وهي دالة على شمول الســـلم لكافـــة العشائر المتناحرة لا يستثنون أحدًا، ولا يبقون على ضغينة في قلب واحد؛ ولذلك كان قول الأعلم الشنتمري ــ في معنى واسعًا "أي كاملًا مكينا" (٣)ــ هو الأوفـــق والأنسب لسياق القصيدة.

وسيأتي ما يدل على الاستغراق والشمول في حديث الشاعر عـــن العقـــل وبذل الديات "لحي حلال...."

وقد ألح على السيدين سلامة الناس، وتعلقا بها حتى عدَا سلامة النـــاس سلامتهم أنفسهم؛ فختم الشاعر البيت بقوله "تسلم" فهم وقومهم كالجسد الواحـــد؛ يؤذيهم ما يؤذي قومهم، ويصلحهم ما يصلحهم؛ لذلك عدّا إدراك الســـلم ســـلامة لذواتهما مع أنهما لم يشتركا في تلك الحرب "ولم يهريقوا بينهم مـــلء محجـــم"، وهو نعت لهم بالسؤدد الذي هو اصطناع العشيرة واحتمال الجريرة كما عبر عن ذلك سلف الأمة(٤) كما هو شديد اللصوق بالبيت التالي:

---

(١) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، فخر الدين الرازي جـــ ٧ ص٤٣ – ط دار إحياء التـــراث العربي ، بيروت لبنان – الثالثة ١٤٢٠.

(٢) انظر مقاييس اللغة جـــ ٣/ ٩٠.

(٣) خزانة الأدب جـــ ٣/ ص ٨.

(٤) انظر/ الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي – أبو الفرج النهرواني ص ٥٧٨. ط دار الكتب العلمية – بيروت لبنان– الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـــ–٢٠٠٥م، وانظر نثـــر الدر في المحاضرات– الرازي – جـــ ٢ ص ٧٠ ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان– الأولى ١٤٢٤ هـــ/ ٢٠٠٤م.

فأصبحتما منها على خير موطن

بعيدين فيها من عقوق ومأثم

فهما لم يغمسا أيديهما في الدماء؛ فنجوا بذلك من الإثم، ولم يتركوا قومهم تأكلهم الحرب؛ فنجوا بذلك من العقوق[١] وحازا بذلك عالي المنزلة ورفيع الدرجات، وهو ما عبر عنه الشاعر بقوله "خير موطن"، وكلمة "موطن" دالة على التمكن من الرفعة والسمو؛ إذْ "الواو، والطاء، والنون" تدل على معنى: المنزل تقيم به، والمكان الذي تأوي إليه[٢]؛ فهما يأويان إلى المعالي ويقيمان فيها لا يبرحانها أبدًا. ووصف الشاعر الموطن بالخيرية، وجعل كلمة خير مقدمة عليها؛ إذْ كان غرض الشاعر متعلقًا بخيرية مكانتهما، فقدم الذي بيانه أهم كما عبر عن ذلك سيبويه والجرجاني[٣].

ومن الحسن ما ذكره الشراح من أن "بعيدين" تقع موقع الحال، فالبعد عن العقوق والمأثم كان وصفًا لازمًا للسيدين اللذين سعيا في الصلح، وكذلك قوله عظيمين في البيت التالي:

عظيمين في عليا معدّ هديتما

ومن يستبح كنزًا من المجد يعظم

وكما قدم كلمة خير على موطن ليدل على ما سبق ذكره= قدم كلمة عليا على معدّ؛ ليدل على أنهما في أرفع مكانة من معد المشهورة بالرفعة والعظمة؛ أي في عليا منزلة هذه القبيلة، ثم أتى بالشطر الثاني ليدل به على سبب رفعتهما

---

(١) انظر شرح القصائد التسع.

(٢) انظر لسان العرب ٤٥١/١٣.

(٣) انظر دلائل الإعجاز ص ١٠٧ ت الشيخ شاكر ط المدني بالقاهرة – الثالثة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

وعظمتهما، وساق ذلك في صورة مجازية من النمط العالي من البلاغة.

والكنز يستخدم في المال الكثير المدَّخر والمحرز والذي يملأ الوعاء، والاكتناز بمعنى الاجتماع والامتلاء [١]والكنز في مثل العلم والمجد يراد منه الكثرة والعظمة ومعنى استباح: انتهب، واستأصل، وجعل الشيء مباحًا، والمباح خلاف المحظور ومعنى هذا أنَّ المال عندهما يكون للمبرّات ولا يعتبرانه لذاته وإنما ينفقانه مهما كثر ومهما غلا، ويجعلانه مباحًا منتهبًا ويأتيان عليه كله ولا يبقيان منه على شيء، وما يستطيع القيام بهذه الأعباء وتكاليفها إلَّا السيد الشريف؛

لولا المشقة ساد الناس كلهم

الجود يفقر والإقدام قتال

وقد ذكر البغدادي في البيت: هديتما أي دامت هدايتكما إلى طريق الفلاح، ومعنى يستبح كنزًا: يصب مجدا مباحًا، والكنز كناية عن الكثرة، يقول: من فعل فعلكما فقد أبيح له المجد واستحق أن يعظم عند الناس[٢].

ولعلَّ سائلًا يسأل ماذا فعلا حتى صارا مستبيحين كنزًا من كنوز المجد؟ الجواب والبيان في البيت التالي:

وأصبح يحدى فيهم من تلادكم

مغانم شتى من إفال مزنم

وألفاظ البيت كلها تشي بفخامة مدح السيدين الساعيين فكلمة (أصبح) تشير إلى سرعة إرسال الديات لأولياء الدم؛ فقد بدءوا يومهم به، ولم ينتظروا ساعة من نهار تمر؛ دون أن يسوقوا الإبل إلى الأولياء، و(يحدى) أصلها من

(١) انظر: أساس البلاغة – الزمخشري- ١٤٨/٢ دار الكتب العلمية بيروت- الأولى ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م. وانظر: لسان العرب جـ ٥/ ٤٠١، ٤٠٢.

(٢) خزانة الأدب ٨/٣.

الغناء وهو يفيد حث الإبل وسوقها سريعًا، وهذا من دلائل سخاوة النفس بما تفعل وسرورها بما حدث.

(من تلادكم) التلاد والتليد: المال القديم الموروث[١] وهو أحب إلى النفوس من المال الطارف الجديد، والخروج من هذا المال لا يكون إلَّا من الأجواد وأرباب المآثر.(مغانم شتى) الغنم والمغنم: الفوز بالشيء من غير مشقة[٢] ولم يكن المغنم واحدًا وإنما هي مغانم بصيغة منتهى الجموع الدالة على تناهي الكثرة والوفرة، وهذه المغانم كانت مختلفة ومتنوعة وهو ما عبر عنه بكلمة شتى مثل ما ورد في الأنبياء "وأمهاتهم شتى" أي دينهم واحد وشرائعهم مختلفة[٣].

وكثير من شراح القصائد أوّلوا كلمة شتى بمعنى متفرقة، وفي هذا إشارة واضحة إلى أن هذه المغانم أخذت وجهات عديدة، وسارت في أكثر من طريق لتصل إلى جميع العشائر؛ المشتملة على أولياء الدم، وهو وثيق الصلة بما سبق من الحديث عن السلم الواسع أي الكامل المكين الذي شمل جميع المتحاربين.

وهذه المغانم الكثيرة الشاملة كانت من أجود أموال الساعيين فقد كانت من الفصلان أي من صغار الإبل وهو ما عبر عنه الشاعر بقوله "إفال"، وهذه الفصلان الكريمة على أصحابها في ذاتهالم تؤخذ على علاتها؛ وإنما اختير الكرام منها وهو ما عبر عنه الشاعر بقوله "مزنم" والتزنيم علامة كانت تجعل على ضرب من الإبل كرام، وهو أن يسحى ظاهر الأذن (أي: تقشر جلدته) ثم تفتل فتبقى زنمة تنوس (أي: تضطرب).

---

(١) انظر شرح المعلقات السبع للزوزني ص ١٤١– ط دار إحياء التراث العربي، الأولى ١٤٢٣ه ٢٠٠٢ م.

(٢) لسان العرب ٤٤٥/١٢.

(٣) نفسه ٤٩/٢.

إذن كانت المغانم المتفرقة الكثيرة من أكرم الأموال، مختارة من أكرم كرام الإبل، وهذا نعت بتناهي الجود والسخاء.

هذه المغانم الكثيرة التي تفرقت في أنحاء القبيلتين، وسيقت سوقًا حثيثًا؛ إلام كانت تهدف؟ وما العوائد التي عادت بها على الناس؟ هذا ما بينه زهير في:

تعفـــى الكلـــوم بـــالمئين فأصـــبحت

ينجّمهـــا مـــن لـــيس فيهـــا بمجـــرم

إذن: كان لهذه المئين من الإبل أثر عظيم في حياة القبيلتين؛ حيث شفت الناس من جراحهم بل محت تلك الجراح محوًا تامًا، وهو ما عبر عنه بقوله (تعفَّى) المضعَفة العين، والدالة بذلك على أن المحو كان كاملًا ، لم تترك أثرًا في نفس مجروح ، ولم تغادر سقما، ومراده "أن الدماء تسقط بالديات"(١).

وفي قوله " ينجمها " دلالة على أن حمالات الساعيين كانت كبيرة، ينوء بها أرباب المال العريض؛ لذلك جعلوها نجوما موقوتة بمواقيت حتى يستطيعوا أن يوفوا بما احتملوا.

وكل هذه الحمالات احتملها السيدان الكريمان وهما بريئا الساحة، بعيدان عن ارتكاب أي جرم في هذه الحرب، كانا بمعزل عن إراقة الدماء ومع ذلك ضمنا إعطاء الديات، ووفيا بها، وأخرجاها نجومًا (٢) وهذا من أمارات الكرم والسمو.ويزيد المعنى المذكور تبيانًا في قوله :

ينجمهـــا قـــوم لقـــوم غرامـــة

ولم يهريقـــوا بيـــنهم مـــلء محجـــم

(١) خزانة الأدب جـ ٣ ص ٩.

(٢) انظر شرح المعلقات السبع للزوزني ص ١٤١.

إن هذين الساعيين تحملا ديات من قتل، وشاركهما الغرم فيها قوم من رهطهما مع أنهم لم يقتلوا أحدًا بل ولم يصبوا قطرة دم واحدة. وقد ألح زهير على إثبات ثقل الديات فذكر كلمة "غرامة" والغرامة والغرام والغرم هو كل ما يبهظ صاحبه، ويضعف عن تحمله وأدائه(١)، ومع أن الديات كانت باهظة ثقيلة فإنهما وفيا بما احتملا ولم ينكصا.

كل هذا يتلاقى مع مقصد زهير في التفخيم والتعظيم لهذين السيدين من جهة، ويتلاقى مع بيان عظيم الصنيع الذي قاما به من جهة ثانية، وبيان أثر ذلك في نفوس القوم جميعًا من جهة ثالثة.وكل ذلك يقوي داعي المديح لهذين السيدين مما أدى إلى فخامة ألفاظه وعلوها وشرفها لعظم وفخامة المعاني المعبرة عنها...

وبهذا أنهى زهير حديثه لبني عبس، ولا شك أنه استطاع أن يستل ما اتقد في قلوبهم من الحقد على بني ذبيان؛ جراء غدرهم بعد الصلح، كما استطاع أن يرد عبسا عن عزمهم في قتل الحارث بن عوف بعد غدرة الحصين بن ضمضم ، واستطاع أن يبغض لهم الحرب والعودة إليها؛ ببيانه وكشفه عن أهوالها ومآسيها.

* * * * *

(١) جاء في مفاتيح الغيب في تفسير الآية ٦٥ من سورة الفرقان: سأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن الغرام فقال هو الموجع. أ. هـ.

ثانياً : خطابه للأحلاف وذبيان

ثم إن الضد يظهر حسن الضد، فإذا كان زهير سما سموًا منقطع النظير بالساعيين؛ فإنه في الجانب الآخر تحدث عن الأحلاف حديثًا يضع منهم ويقلل من شأنهم، وإذا قارنت هذا بما تقدم ذكره من الحديث وجدت فرقًا بعيدًا؛ بين حال وحال وبين رجال ورجال.

وكلما سرت في قراءة حال الأحلاف، ووصف الحصين بن ضمضم يزدد إعجابك بالساعيين بقدر إغماضك عن المقابلين لهما وكثيرًا ما يلجأ المتكلم إلى الطباق الموظف توظيفا حسنًا ليبين الفرق بين حال قائمة وحال زائلة، بين ما هو كائن، وما هو واجب أن يكون، وكذلك المقابلة التي تقوم على تعدد الطباقات التي تخاطب العقول والقلوب، وتؤثر في الحواس وتأسر الأسماع".

وانظر إن شئت إلى حديثه عن الأحلاف في قول الشاعر:

ألا أبلغ الأحلاف عني رسالة

وذبيان هل أقسمتم كل مقسم

التضاد الذي أريد الكشف عنه فيما يأتي من أبيات ليس من الطباق الاصطلاحي أو المقابلة الاصطلاحية المعروفين في علوم البلاغة وإنما هو مقابلة من نوع آخر؛ مقابلة فكرة عامة بفكرة عامة أخرى، وإن شئت قل مقابلة صورة كلية بصورة كلية أخرى، وهو ما يسمى في نقد الشعر الحديث بالمفارقة التصويرية[١] وهي نظام فني يستخدمه الشاعر لإبراز التناقض بين طرفين متقابلين بينهما نوع من التناقض[٢] وهذا التناقض قد يمتد ليشمل القصيدة كلها

(١) انظر عن بناء القصيدة العربية الحديثة ص١٣٠.

(٢) علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني، د/ محمد أحمد قاسم، د/ محيى الدين ديب ص٧٣- المؤسسة الحديثة للكتاب طرابلس – لبنان ط الأولى ٢٠٠٣م.

فتقوم كلها على مفارقة تصويرية كبيرة كما سنرى من البيان والتحليل.

الذي ينظر إلى البيت المذكور ما عساه أن يجد؟ ضع اختياره كلمة الأحلاف في مقابلة ما ذكره قبل ــ عن الساعيين أو السيدين أو عظيمين في عليا معد ــ تجد البون شاسعًا ويتضح لك سمو هناك لا شبيه له، ونجد هنا ذلة وهوانًا وضعفًا، كيف هذا؟ يتضح هذا بالوقوف على معنى كلمة الأحلاف وسبب ما ينعقد من التحالف عند العرب؛ في البدء أقول الأحلاف واحدها حلف وفيه يقول ابن فارس:

"الحاء واللام والفاء أصل واحد وهو الملازمة، يقال: حالف فلانًا إذا لازمه"(١) وذلك ليمنع بعضهم بعضًا، وليكون الواحد لأخيه يدًا على غيره، وهو عهد يكون بين فريقين يحلف فيه الفريق لنظيره ألا يغدر به(٢).

إذن الأحلاف كانت تنعقد خشية الغدر أو السطو، وكان لا يلجأ إليها إلَّا أهل الخور والجبن، وانظر مصداق ذلك فيما جاء في دلائل الإعجاز من ظن السيدتين الكريمتين: عائشة بنت الصديق وحفصة بنت الفاروق – رضي الله عنهما – أن سودة – رضي الله عنها– عرضت بهما وبقبيلتهما حين أنشدت "عدى وتيم تبتغي من تحالف " وجرى بينهن كلام في هذا المعنى فأخبر النبي – صلى الله عليه وسلم – فدخل عليهن وقال "يا ويلكن ليس في عديكن ولا تيمكن قيل هذا وإنما قيل هذي في عدى تميم وتيم تميم"(٣).

إذن غضبت السيدتان المطهرتان مما ظنتا أن عشيرتهما تبتغي من تحالف، وسر غضبهما يفهم عند قراءة الشعر كاملًا، "وتمام هذا الشعر وهو لقيس

---

(١) مقاييس اللغة ٢/٩٨.

(٢) انظر القاموس المحيط ١/٨٠١.

(٣) دلائل الإعجاز – الجرجاني– شاكر ص ٢٠.

بن معدان الكليبي من بني يربوع:

فخـــــالف ولا والله تهـــــبط تلعـــــة

مـــن الأرض إلَّـــا أنـــت للـــذل عـــارف

ألا مـــــن رأى العبـــــدين أو ذكـــــرا لـــــه

عـــدى وتـــيم تبتغـــي مـــن تحـــالف[1]

إذن لم يكن العرب يلجأون إلى الحلف إلَّا من يخشى منهم الذل والهوان أو ضعيف يخشى الأخذ!!

وإذا نظرت إلى تعبير زهير بالأحلاف عن قبائل أسـد وغطفـان وطـئ، ووضعت هذا بإزاء تعبيره عن المصلحين بالساعيين والسيدين والعظيمـين فـي عليا معد وجدت بعدًا بعيدًا وفرقًا كبيرًا.

وإذا نظرت إلى البيت كلمة كلمة، وجملة جملة وجدت المفارقة واضـحة بين الساعيين، ومن يتحدث عنهم في هذه الأبيات، وكأنه يتخذ من ذلك دليلًا على تفخيمه وتعظيمه لهذين السيدين ولما فعلاه في قومهما...

انظر إلى الفعل "أبلغ" وقد سبقته "ألا" الاستفتاحية التي تفيد التنبيه وضع هذا إزاء ما سبق من الحديث عن السيدين حيث "أقسم بالبيت الذي طاف حولـه" يمينًا لنعم السيدان وجدتما... البيتان؛ في السابق أقبل عليهما بوجهه، وخاطبهما خطابًا مباشرا مؤكدا بمؤكدات عدة، وأطال في ذلك الخطاب قبل ذكر جواب القسم، ثم كان جواب القسم وما تلاه على النحو الذي بينت قبل.

أما هنا فلم يقبل على الأحلاف وذبيان ولم يخاطبهما، بل تفقد من يـبلغهم رسالته، وكأنه تلفت كثيرًا من أجل أن يعثر على من يبلغهم تلك الرسالة فلم يجد،

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ٢٠.

أو لم يجد من الناس من يتحمس لهذا، أو وجد الناس يتغافلون عن سماع كلامه فلجأ إلى إيقاظهم وتنبيههم فأتى بـ "ألا" الاستفتاحية سابقة على الفعل.

وأنت تجد في الشعر كثيرًا كلمة "ألوكة" ولكن زهيرًا استعمل كلمة "رسالة" وذلك لأنَّ "الهمزة واللام والكاف أصل واحد وهو تحمّل الرسالة"[١] هذا تعبير ابن فارس، وانظر إلى قوله "تحمّل" التي تشي بالتكلف والتصنع والتعمل، أو قل تشي باهتمام حامل الرسالة.وحامل رسالة زهير- إن وجد- لن يبالغ في الاهتمام بأمرها بل سيحرص على إلقائها سريعًا عن عاتقه؛ ولذلك جاءت كلمة رسالة دون ألوكة.

وأما إذا عمدت إلى الرواية الأخرى "فمن مبلغ الأحلاف" بأسلوب الاستفهام فكأن زهيرًا حين استخدم هذا الأسلوب حاول أن يجد من يبلغ الأحلاف رسالته فلم يجد فأتى بالاستفهام باحثًا عن حامل لتلك الرسالة.فزهير لا يريد أن يخاطبهم وجهًا لوجه، ويحاول أن يجد من الناس من يقوم بهذه المهمة فلا يجد واحدًا يرضى بهذا، وفرق كبير بين هذا الحال وما سبق من خطاب الساعيين.وقول زهير "عنى" تشي بأن الناس زهدوا في إبلاغهم وتركوا التحدث إليهم ولم يبق سواه هو الذي يحاول أن يوصل لهم تلك الرسالة.

أما قوله "هل أقسمتم كل مقسم" يبكتهم فيه زهير- وقد أبرموا حبل الصلح وتعاهدوا على ترك الحرب - بعد أن سارع حصين بن ضمضم إلى الغدر ونقض عهد الصلح بقتله ورد بن حابس في بيته يوم نزل عليه ضيفًا وشراح المعلقات يجمعون على حذف جواب الاستفهام ويقدرونه بـ لتفعلن ما لا ينبغي" ولكن ما سر هذا الحذف؟ لماذا لم يذكره صريحًا؟

---

(١) مقاييس اللغة ١/ ١٣٢.

تركه التصريح بهذه الفجرة أو الغدرة أكثر إيجاعًا وإيلامًا من ذكره لها؛ فكأن الشاعر منزه ليس فقط عن فعل ما لا ينبغي، بل ولا يرضى أن ينطق بهذه العوراء التي أتى بها الأحلاف وذبيان.

ثم إن الغدرة كانت من فرد واحد من أفراد ذبيان فلماذا توجه الخطاب إلى القبائل كلها؟ ولماذا آلم جميع ذبيان والأحلاف، ولم يقصر خطابه على الفاعل الحقيقي الوحيد، الذي سقط هذه السقطة، وغدر هذه الغدرة المنكرة؟

هذه الفجرة وإن كانت من واحد فقط إلَّا أن الذي يترتب عليها هو أن تعود الحرب جذعة كما كانت تأكل الأخضر واليابس ولا تبقى على شيء، ثم إن المعهود لدى القبائل أنها تحمي كل فرد من أفرادها وكذلك الأحلاف تتعاون فيما بينها إذا نزل بطرف منها شر فمن هنا توجه الخطاب للجميع.

والاستفهام في البيت بمعنى "قد" على ما ذكر كثير من الشراح ومع ذلك فإن دلالة الاستفهام تبقى في "هل" مستكنة، وتظل لها ملازمة، وورود الأسلوب على هذه الصيغة أوفق وأفضل من مجيئه بصيغة الخبر الصريح وذلك لأنَّ بناء الكلام على الاستفهام ترى له معاني لا تراها في محض الخبر، وترى له وقعًا في النفس لا تجده لصريح الخبر؛ حيث إن الاستفهام فيه معنى التسليم بقول الشاعر، وأنه لا حيلة له في إنكاره أو التفلت منه!!

وكلمة "كل مقسم" تشي بإصرارهم على الغدر وإلحاحهم على نقض العهد، فهم لم يكفهم أن يتعاهدوا فيما بينهم على هذا حتى لجأوا إلى القسم بكل ما يقسم به، ولم يتركوا يمينا إلا حلفوا بها!! وفي هذا من الوصم بالعار والشنار ما فيه.

وتستمر المفارقة التصويرية فيما يلي من الأبيات حتى يؤكد على أن السيدين يستحقان عظيم المديح وفخمه؛ ففي البيت التالي يواصل الشاعر تبكيته للأحلاف وذبيان فيقول:

فـــــلا تكـــــتمن الله مـــــا في صـــــدوركم

ليخفـــــي ومهمـــــا يكـــــتم الله يعلـــــم

هذا البيت دعوة من زهير لذبيان والأحـــلاف أن يصـــححوا الصـــلح ولا يفسدوه وذلك بألا يظهروا الصلح ويكتموا في أنفسهم الغدر كما فعل حصين بـــن ضمضم ، وقد استهل الشاعر بيته بالفاء الواقعة في جواب شرط يفهم مما سبق، وكأن القوم استشعروا الخزي والخذلان من قوله السابق، وطأطأوا رءوسهم أمام تبكيته فتناولهم ببيته الجديد ليزيد في إيجاعهم.

وهم يوم غدروا وكتموا رغبتهم غدروا بعبس وكتموا ذلك عمن شهد هذا الصلح ولكن الشاعر جعل كتمانهم ليس للبشر بل جعله متوجها لرب البشر الـــذي يعلم كل السرائر والخفايا، وفي هذا من العوراء ما فيه.فالعهود والمواثيق يشهدها الله بل كأن الله تعالى هو الذي يعقدها بين الأطراف.

وانظر إن شئت إلى القرآن الكريم لتجد مصداق هذا في سورة الفتح يوم عاهد الصحابة الكرام رسول الله تحت الشجرة بيعة الرضوان فأنزل الله فيهم "إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم" ثم أتبع سبحانه هذا الكـــلام بكلام عن نقض العهد وعن الوفاء به فقال: "فمن نكث فإنما ينكث علـــى نفســـه" وأما أهل الوفاء فإن الله تعالى سيجزل لهم الثواب ويعظم لهم الأجر "ومن أوفـــى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا".

هذه المعاني الشريفة والمآثر الكريمة عرفها العربي في الجاهلية بفطرته الصافية وألمح إليها الشعر في أبيات عدة، ومفسرو القرآن يذكرون دلائـــل هـــذا فانظر إن شئت إلى ما جرى بين رسول الله وعمه العباس الذي كان أســـيرًا مـــن أسرى بدر، وقد شارك في معركة بدر بماله مطعمًا لجيش مكة فلمـــا وقـــع فـــي الأسر- وكان معه عشرون أوقية ذهبًا- لم يردّ عليه النبي ذلك الذهب، فقال لـــه

العباس تركتني يا محمد أتكفف قريشًا فقال رسول الله أين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة .... فقال العباس... أنا اشهد أنَّكَ صادق وأن لا إله إلَّا الله وأنك عبده ورسوله والله لم يطلع عليه أحد إلَّا الله ولقد دفعته إليها في سواد الليل... إلخ(١).

إذن الجاهليون كانوا يعرفون الله في معاملاتهم وفيما يكون بينهم وكانوا يعتقدون اطلاعه على عهودهم ومواثيقهم وما يأتون به؛ ولذلك كان حديث القرآن عن خيانة المشركين لرسول الله وللمؤمنين أنها خيانة لله "وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل". وجاء في التفسير الكبير تأويلًا لهذه الآية "روي أنَّه عليه السلام لما أطلقهم من الأسر عهد معهم ألا يعودوا إلى محاربته وإلى معاهدة المشركين فقال تعالى: (وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ =أي نكث هذا العهد= فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ) (٢).

إذن هذا هو المعتاد والمعلوم عند العرب، وبلسانهم نزل القرآن، وعلى قدر عقولهم خاطبهم، وفي هذا تأكيد على ما سبق ذكره من أن العرب في الجاهلية كانوا يعتقدون شهود الله عهودهم ومواثيقهم؛ ولذلك صح من زهير هذا الخطاب، وهذا دليل على أن زهيرًا لم يكن وحده الذي يتأله في الجاهلية، بل كثير من أهل الجاهلية، أو جميعهم يعلم أن المصيبة لا تصيب الذين ظلموا منهم خاصة، ولذلك صح من زهير أن يعتبر نقض حصين بن ضمضم للعهد هو نقض من جميع الأحلاف كما صح فيه اعتبار كتمان الغدر كتمانًا عن الله وغدرًا بالله وخيانة لله.

---

(١) انظر مفاتيح الغيب جـ ١٥ ص ٥١٣

(٢) نفسه جـ١٥ ص٥١٤

وقد اختار زهير فعله من مادة "الكتم" وليس من شبيهاتها في الإخفاء والستر، ومادة "كتم" وإن كانت تدل على إخفاء وستر كما ذكر ابن فارس إلَّا أن فيها زيادة معنى فهي تدل على أن الكاتم لا يتأتى منه فعل ما؛ يشي بما يكتمه، يقال ناقة كتوم: لا ترغو إذا ركبت قوةً وصبرًا، وسحاب مكتتم! لا رعد فيه، وخرْز كتيم لا ينضح الماء[١] وجاء في القاموس المحيط "وناقة كتوم ومكتام بالكسر: لا تشول بذنبها عند اللقاح، ولا يعلم بحملها"[٢].

وكذلك الأحلاف أخفوا وستروا وكتموا ولم يعلم أحد بما يحملون في صدورهم، وفي هذا إيجاع أكبر في وصمهم بالغدر والخيانة، وكان من المناسب له أن يتأتى بعلة الكتم: "ليخفي"؛ تأكيدًا لرغبتهم في التخفي بما يقصدون إليه.

ثم استخدم- عقيب هذا -الأداة "مهما" الدالة على الإيهام فمهما أتوا بمحاولات تلبس على الناس وتوهم، بعكس ما في صدورهم فإن هذا إن خفي عن الناس فلن يخفى على الله، بل سيكون معلومًا ظاهرًا لا خفاء فيه وقد جاء في لسان العرب "مهما حرف من حروف الشرط التي يجازي بها".... وقال أبو سعيد مهمهته فتمهمه أي كففته فكفَّ"[٣]. فهم حرصوا كثيرًا على كفكفة جوارحهم ونفوسهم عن إظهار أي شيء يدل على ما في صدورهم ولكن كل هذا كان بينًا عند العاقد الحقيقي للعهد وهو الله سبحانه وتعالى.

يقول البلاغيون "وتجئ مهما الشرطية هنا لتدل على أن بذل المحاولات واتخاذ الاحتياطات المختلفة واستخدام كل أنواع الحذر في أمر الكتمان لا يغني من الله شيئًا و"مهما" هي التي تشي بكل ذلك دون غيرها من أدوات الشرط"[٤].

---

(١) انظر مقاييس اللغة ٥/ ١٥٧.

(٢) القاموس المحيط ص ١١٥٣.

(٣) لسان العرب ٥٤٣/١٣.

(٤) معلقة زهير في ضوء نظرية النظم د/ أحمد محمد علي ص ٦٧ ط دار الحديث- القاهرة.

قارن بين الذي أتى في البيت وما سبق في مدح الساعيين: وقد قلتما... قارن بين التكتم والحرص على التخفي والتستر، وبين القول الصريح المسبوق بما يدل على التحقيق، وقارن بين رغبة في إفساد الصلح، وحرص على إدراك السلم واسعًا بكل ما يملكون من قوى مادية ومعنوية، وضع في المقارنة صورة الإبل التي تساق بنشاط وتحدى في وضح الصباح، وما يترتب على هذا من ضجيج وأصوات صاخبة تسعى لرأب الصدع= قارن بين هذا وذاك لتتضح لك المفارقة تمام الاتضاح وتصبح ماثلة لكل راءٍ.

ثم يتحدث زهير عن أثر الخداع على المخادعين أنفسهم وعن الثمن الغالي الذي يدفعونه جراء خيانتهم وغدرهم فيقول:

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر

ليوم الحساب أو يعجل فينقم

أي أن كتمانهم ما في نفوسهم لن يهمل، وهم بكتمانهم لن يتركوا بل سيحاسبون على ما أجرموا، وأن فعلهم هذا لن ينسى ولن يضيع بل سيكتب في كتاب وسيحفظ لهم حتى تأتي ساعة الحساب العاجلة أو الآجلة.

وقد ذكر ابن قتيبة – بسبب هذا البيت والذي سبقه- كان زهير يتأله في شعره ومن معلقته ما يحمل على القول "إنه كان مؤمنًا بالله وبالبعث والحساب"(١).

---

(١) الشعر والشعراء- ابن قتيبة ١/١٤٥- ط دار الحديث بالقاهرة ، ١٤٢٣هـ. وقد سبق قبل صفحتين أن ذكرت أن زهيرا لم يكن وحده الذي يتأله في الجاهلية، بل كان كثير منهم يتأله وخذ شاهدا – غير ما سبق – قول صخر أخي الخنساء: (الكامل في اللغة والأدب ١/ ١٥٤)

إذا ما امرؤ أهدى لميت تحية فحياك رب العرش عني معاويا!

وقال الأصمعي: جامع زهير قومًا من يهود، أي قاربهم فسمع بذكر المعاد فقال [١].... البيت.

ويلحظ هنا تقديم زهير للعقوبة الآجلة ثم عطف عليها العقوبة العاجلة والانتقام السريع فما سر ذلك؟!لعل السر في ذلك أن زهيرا عدَّ نقض العهد وفعل ما لا ينبغي خيانة لله تعالى على النحو الذي سبق بيانه ولذلك قدم عقوبة الله الأخروية؛ تلك العقوبة التي هي أشد إيجاعًا وإيلامًا من العقوبات العاجلة وهو ما يتناسب مع تلك الغدرة التي يعظمها العرب ويرونها شرًا مستطيرًا .

وهذه وقفة مع بعض مفردات البيت ودلالة كل مفردة، اختار زهير كلمة يوضع في كتاب، ولعلَّ سائلًا أن يسأل لماذا لم يقل فيكتب أو نحوًا منها؟ زهير يتحدث عن غدرة أو فجرة لا تقبل بأي حال من الأحوال وإذا رجعنا إلى أصل الكلمة "وضع" نرى ابن فارس يقول "الواو والضاد والعين! أصل واحد يدل على الخفض للشيء وحطه، ووُضِع في تجارته يُوْضَع: خسر، إذن هذه الكلمة نقيض الارتفاع والسمو، وهي دالة على الخسارة؛ لذلك كانت أنسب الألفاظ وأكثرها ملاءمة للسياق.

ولسائل أن يسأل: لماذا قال زهير "في كتاب"؟قوله في كتاب يشير إلى أن ما فعلوه لن ينسى ولن يضيع وأن مجازاتهم عليه محققة لا تتخلف أبدًا، وانظر إن شئت إلى تفسير الآية الكريمة من سورة طه: "قال علمها عند ربي في كتاب". "تفسير ذلك بأن بقاء تلك المعلومات في علمه سبحانه كبقاء المكتوب في الكتاب فيكون الغرض من هذا الكلام تأكيد القول بأن أسرارها معلومة لله تعالى بحيث لا

(١) فحولة الشعراء- الأصمعي ص ١٧ ط دار الكتاب الجديد، بيروت ط الثانية ١٤٠٠ هـ- ١٩٨٠م.

يزول شيء فيها عن علمه"[١].

وقول زهير "فيدخر" جميع كتب اللغة مجمعة على أن هذه الكلمة يدور معناها حول الذل والصغار.[٢]

وأما المعنى الذي يتبادر إلى الذهن والمستعمل في عصرنا فليس له أصل في العربية إلَّا أن يرد إلى (الذال والخاء والراء) وبالتالي فإن هذه الغدرة التي غدرها الأحلاف ستكون عند الله ذليلة مهينة ولا شك أن المراد بهذا: أصحابها والذين أتوا بها وصدرت عنهم، فالذل والصغار سيحيط بهم يوم الحساب بسبب فعلتهم الشنعاء حتى يبدو أثر ذلك على الفعلة نفسها فتحمل صفة أصحابها، وعلى هذا فلا متعلق للجار والمجرور إلَّا قوله "يؤخر".

ثم إن العقوبة العاجلة إذا حلَّت ستكون هي الأخرى شرًا لا يطاق ستكون قتلًا وطحنًا وشؤمًا وستغل لأهلها دما وكل ما يكرهون وهذا ما سيذكره زهير في الأبيات القادمة وسيسوقه في صور قاتمة مفزعة تجعل الناس يبغضون الحرب ويفرون إلى السلم ويحافظون على ما بين أيديهم من الصلح ويحرصون على ألّا تشوبه شائبة تفسده.

يقول زهير عن الانتقام العاجل من الأحلاف الغادرين :

١ - وما الحرب إلَّا ما علمتم وذقتم

وما هو عنها بالحديث المرجم

٢ - متى تبعثوها تبعثوها ذميمة

وتضر إذا ضريتموها فتضرم

---

(١) التفسير الكبير جـ ٢٢ ص٥٩

(٢) انظر مقاييس اللغة ٢/ ٣٣٣- والقاموس المحيط ٣٩١/١ ولسان العرب ٢٧٨/٤.

٣ - فتعـــرككم عـــرك الرحـــا بثفالهـــا

وتلقـــح كشـــافًا ثـــم تنـــتج فتتـــئم

٤ - فتنـــتج لكـــم غلمـــان أشـــأم كلـــهم

كـــأحمر عـــاد ثـــم ترضـــع فـــتفطم

٥ - فتغلـــل لكـــم مـــا لا تغـــل لأهلـــها

قـــرى بـــالعراق مـــن قفيـــز ودرهـــم

أنَّهى زهير البيت السابق على هذه الأبيات بقوله: "أو يعجل فينقم" والنقمة هي المكافأة بالعقوبة وأصل (نقم) يدل على إنكار شيء أو عيبه، ونقمـت عليـه أنقم: أنكرت عليه فعله[١]، ولما أنكر عليه أوقع عليه العقوبة مكافأة له على فعله ما لا ينبغي، وهذه العقوبة العاجلة تتمثل في تسلط الناس على الغادرين وإعـادة الحرب شرسة قوية كما كانت، ويكون لها مردود مكروه ذميم شـائه وهـذا مـا سنفصله الآن :

بدأ زهير بتحذير للأحلاف الذين غدروا ونقضوا العهد الـذي عاهـدوا ، تحذير من العودة إلى الحرب بعد أن أنقذهم الله من شـرها ووبالهـا وخرابهـا وبؤسها وجراحاتها، وفي تحذيره للأحلاف لم يذكر لهم شيئا معينًا مـن شـرور الحرب وآثارها، وإنما قال قولًا عامًا يجعل المستمع يجول بذهنه هنا وهناك ليرى بنفسه من شؤم الحرب ألوانًا وألوانًا، هذا القول العام جاء مصوغًا فـي تركيـب القصر "وما الحرب إلَّا ما علمتم وذقتم" وقد كان الأحلاف قريبي عهد بحرب طويلة مهلكة تفجرت فيها الدماء وأزهقت فيها الأرواح وبلغت فيها الإصابات مبلغًا كريهًا وحل فيها الخوف محل الأمن، والبأساء محل النعماء والفقر محل الغنى؛ ولذلك لم يذكر لهم زهير شيئًا محددا إذ هو علم يقيني عندهم بل شيء جربـوه بأنفسـهم

(١) القاموس المحيط ص ١١٦٤- ومقاييس اللغة ٤٦٤/٥.

وذاقوا ويلاته، وعلموا بكل مضاره. فما عسى زهير أن يقول بعد هذا العلم والمعاينة والمعايشة الطويلة؟ الأسلوب الأمثل أن يكون هكذا مبهمًا في تركيبه، لأنَّه واضح في الواقع تمام الوضوح، وماثل للعيان.

ولك أن تقول إن زهيرًا لم يترك المخاطبين دون بيان شاف عن آثار الحرب ودون مقارنة بين هذه الآثار وآثار الأمن والدعة الناتجة عن الصلح والسلم.

ولك أن تسال أين هذا البيان الشافي في المعلقة؟وأقول لك هذا البيان الشافي مذكور في فصلي القصيدة الأولين، وقد سبق الحديث عنهما وإن شئت أن تقرأ فيهما قراءة شافية للسقم فارجع إلى ما جاء في كتاب: الشعر الجاهلي: دراسة في منازع الشعراء(١).

وعلى هذا يكون المراد بقول زهير "ما علمتم" أي ما أبنت لكم عنه من قبل، و"ذقتم" أي ما جربتموه بأنفسكم، وجاء في مقاييس اللغة نقلا عن الخليل: كل ما نزل بالإنسان من مكروه فقد ذاقه(٢).

وبعد بيان الشاعر عن آثار الحرب في فصل المعلقة الأول، وعن آثار السلم والأمن في فصلها الثاني، وبعد ما جربه الأحلاف وما ذاقوا من ويلات الحرب صار العلم بها وبأحوالها يقينًا لا يداخله شك ولذلك قال زهير في شطر البيت الثاني "وما هو عنها بالحديث المرجم" أي بالحديث المقول بطريق الظن لا عن تحقيق، يقول: وما حديثي عن الحرب وتخويفكم أهوالها بالحديث المفترى، وإنما أنتم قد علمتم ويلات الحرب وذقتموها فلا تقربوها"(٣).وهذا تأكيد لصحة

---

(١) هذا الكتاب للدكتور محمد أبو موسى ط وهبة.

(٢) مقاييس اللغة ٣٦٤/٢.

(٣) الذخائر والبصائر– عبد الرحمن البرقوقي ٢٥٧/٢ ط مكتبة الثقافة الدينية بمصر.

كلامه عن الحرب وما فيها....

كما أنَّه حينما قال: "وما الحرب إلَّا ما علمتم وذقتم" أوكلهم إلى نفوسهم والإنسان لا يخدع نفسه ولا يضللها... وهذا أوقع في التحذير من مغبة الرجوع إلى عهد الحروب وويلاتها...

ولم يكتف بأن وكلهم إلى علمهم بويلات الحروب وشرورها وإنما أكد ذلك بالعطف في قوله "وذقتم" وهذا تأكيد للعلم من جهة ودليل على صحة العلم من جهة ثانية فهم ذاقوا ذلك بأنفسهم وجربوه في ذواتهم...

وكل هذه الأوصاف للحرب وما يقع فيها من شرور وويلات... يقوي سبب المديح لمن يقف ضد هذه الحرب ويحاول منعها.... ويجعل المدح واقعًا في موقعه الصحيح ومكانه الأليق به....

ثم يتحدث عن إحياء الحرب بعد إماتتها وإثارتها بعد سكونها وإشعالها بعد إطفائها، وذلك كله ناتج عن نقض العهد بين الفريقين وهو في حديثه هذا يصور حال تلك الحرب ويصور آثارها الذميمة على مشعلها ومثيرها يقول في بيتها الأول:

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة

وتضر إذا ضريتموها فتضرم

هذا بيت من أربعة أبيات يتحدث فيها عن الحرب ويصورها في صور متتالية مخيفة مفزعة، وإذا وضعت هذه الأبيات بإزاء الفصل الثاني من المعلقة الذي يتحدث فيه عن حياة النساء ذات الدل والتنعم، وما رفلوا فيه من جميل الثياب والمراكب وما تمتعوا به من أمن وسلام حتى في حال مرورهم على من كان يعاديهم= إذا وضعت صورة الحرب القاتمة بإزاء صورة الظعائن البهيجة

وقعت على مفارقة تصويرية عالية الفن والجودة.

وفي البيت المذكور يؤكد الشاعر على ذم من يثير الحرب إذْ الحرب في ذاتها ذميمة وبها يذم مثيرها ويحذر من إشعالها لأنَّها تزداد شيئًا فشيئا ولا يكاد ينطفئ أوارها.ومعنى: "تضر" أي لا يكاد ينقطع أثرها من قولهم عرق ضريّ: لا يكاد ينقطع دمه[١]وضرى بالشيء إذا أغرى به حتى لا يكاد يصبر عنه[٢] "ويقال كلب ضار وكلبة ضارية ، وقد ضرى الكلب بالصيد ضراوة أي تعوّد وأضراه صاحبه أي عوَّده، وأضراه به أي أغراه وكذلك التضرية قال زهير"[٣].... البيت.

والشاعر هنا يحذر الأحلاف من سوء عاقبة إيقاد نار الحرب إذْ هي تبدأ صغيرة ثم تعظم وأنهم إذا أوقدوا نار الحرب ذموا وإذا أثاروها ثارت، وإذا هيجوها هاجت.

ولما كانت الإثارة والتهييج هو المحور الذي يريد الشاعر أن يدور حوله ساق من الألفاظ ما يناسب مراده فأتى بلفظ (تبعثوها) وهو أدل الألفاظ على الإثارة وإحياء ما مات من أمرها، وكرر هذا اللفظ في جواب الشرط مع أن الأصل مخالفة جواب الشرط للفعل، وإذا أتى متحدًا أوّلوه، كما في الآية الكريمة: (وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ) أي إذا أرتم أن تبطشوا بطشتم... إلَّا أنهم ذكروا أن اتحاد الفعل والجواب لا يضر إذا قصد به المبالغة[٤].

---

(١) القاموس المحيط ص ١٣٠٥.

(٢) مقاييس اللغة ٣/ ٣٩٧.

(٣) لسان العرب ٤٨٢/١٤.

(٤) انظر تفسير الألوسي جـ ١٠ ص ١٠٨– ت علي عبد الباري عطية، ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان – الأولى ١٤١٥هـ .. والبحر المحيط في التفسير ، أبو حيان الأندلسي جـ٨ ص ١٧٩، ت صدقي محمد جميل ، ط دار الفكر بيروت – لبنان ١٤٢٠هـ.

وأتى عقيب الشرط والجواب بما يدل على ذم باعث الحرب ، مبالغًا فيها من جهتين، أولاهما أنها على صيغة فعيل الدالة على المبالغة بذاتها، ثم بجعلها حالًا لازمة لا يصح حذفها إذْ المراد يتوقف على ذكرها. (١)

ولم يتوقف اللفظ عند ذم باعث الحرب فحسب بل الحرب في ذاتها ذميمة، وفي عاقبتها ذميمة؛ لما يصيبهم فيها من القتل وبالتالي فكل من يشارك فيها أو يساعد بأمر قلّ أو صغر شمله الذم وأحاط به "فما جدوى بعثها إذن إلا أن تكون النفوس غير سوية تهوى القبح والدمامة والبشاعة، وتنفر من الحسن والجمال؟. واستخدام الشرط "متى" يوحي لك بأن قبحها طبيعة فيها لا يتغير بتغير الظروف والأحوال.. وفي هذا من التحذير والتنفير من الحرب ما فيه"(٢).

وزاد زهيرٌ من تنفير الحرب حينما تحولت في بيانه إلى كائن حيّ لا يصبر عن ترك الحرب ولا ينقطع شره وأذاه مثل السبع الذي لهج بالفرائس أو مثل الكلب الذي أغرم بالصيد، وفي هذا من بشاعة المنظر ما فيه.

ناهيك عن صورة النار المشتعلة التي تأكل كل ما يقع في محيطها من إنسان أو حيوان أو متاع حتى تذر الديار بلاقع مسودة. وارجع بنظرك إلى قول زهير بداية المعلقة حينما اختار كلمة "دمنة" دون ما سواها من ألفاظ قريبة لها "أمن أم أو في دمنة لم تكلم" فالحرب لا تبقي من البيوت إلَّا الدمن.

وتتوالى صور الحرب المخيفة القبيحة فبعد أن جعلها أسدًا ضاريًا، ثم نارًا تشتعل، يشبهها الآن برحى تطحن الناس فتأتي عليهم وتغير خواصهم وتحولها إلى شيء آخر غير الذي كانوا عليه من قبل، يقول زهير:

---

(١) انظر التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل ، أبوحيان الأندلسي ج٩ / ص١٤٠ ، ت حسن هنداوي ، ط دار كنوز إشبيليا، الطبعة الأولى .

(٢) معلقة زهير في ضوء نظرية النظم ص ٧٢، ٧٣.

فتعــــــرككم عــــــرك الرحــــــى بثفالهــــــا
وتلقـــــح كشـــــافًا ثـــــم تحمـــــل فتتـــــئم

وهنا جعل زهير آثار الحرب المدمرة تقع أول ما تقع على مـــن أشـــعلها فخاطبهم قائلًا "فتعرككم عرك الرحى بثفالها" وفي القاموس المحيط "عركه: دلكـــه وحكّه حتى عفّاه، وحمل عليه الشرَ"[١].وهو مناسب لقول زهير بداية المعلقة:

وقفـــت بهـــا مـــن بعـــد عشـــرين حجـــة
فلأيـــا عرفـــت الـــدار بعـــد تـــوهم

فالحرب عفّت الديار ومحتها حتى أصبح التعرف عليها مستحيلًا، أو غير ممكن إلَّا بعد جهد ومشقة وفي لسان العرب "وعركتهم الحرب تعـــركهم عركًـــا: دارت عليهم، وكلاهما على المثل قال زهير[٢]... البيت. وفي هذا تبكيت للأحلاف وذم لهم وطعن فيهم؛ فهم لن يستطيعوا أن يصمدوا لقسوة الحرب التي أشـــعلوها وأثاروها، فهم أضعف وأجبن من احتمال أمرها.

وتأتي صورة أخرى في الشطر الثاني الذي بدأه بقولـــه "وتلقـــح كشـــافًا" واللقاح: إحبال ذكر لأنثى ثم يقاس عليه ما يشبّه[٣]، و"الكشاف: أن تلقح الناقـــة في غير زمان لقاحها... والكشاف أن يحمل على الناقة بعد نتاجها وهي عائذ قـــد وضعت حديثًا، وعن الأصمعي قال: إذا حمل على الناقة سنتين متـــواليتين فـــذلك الكشاف، وأجود نتاج الإبل أن يضربها الفحل، فإذا نتجت تركت سنة لا يضـــربها الفحل، فإذا فُصِل عنها فصيلها- وذلك عند تمام السنة من يوم نتاجهـــا- أرســـل الفحل في الإبل التي هي فيها فيضربها، وإذا لم تَجِمَّ سنة بعد نتاجها كـــان أقـــل

(١) القاموس المحيط ص ٩٤٨.
(٢) لسان العرب ٤٦٥/١٠.
(٣) مقاييس اللغة ٢٦١/٥.

للبنها، وأضعف لولدها، وأنهك لقوتها وطِرْقها ولقحت الحرب كشافًا على المثل، ومنه قول زهير..... فضرب إلقاحَها كشافًا بحدثان نتاجها وإتآمها مثلًا لشدة الحرب وامتداد أيامها"[١].وبذلك يتلاقى كثرة النتاج هنا مع كثرة إنتاج الحرب من شرور وويلات..

"وأراد أن هذه الحرب كلما خمدت عادت، وقوله فتتئم أي تأتى من حملها بتوأمين وهذا تهويل وتعظيم لأمر الحرب، وإيهام أن شرها متكرر وهولها متضاعف، ولأنها أيضًا يطول أمرها فتكون بمنزلة الناقة التي تضرب، ثم تحمل، ثم تنتج، ثم تفطم، وقيل لأنَّها يتحلب منها من الدماء مثل ما يتحلب من الناقة من اللبن"[٢].

إذن صورَ زهير الحرب في صورة ناقة ألقحت في غير زمن لقاحها وولدت نتاجًا رديئًا وكان هذا الرديء كثيرًا، فهو مع كثرته لا يرجى خيره، وهذه الصورة يستخلص منها أن الحرب تخلف بين المحاربين جيلًا ضعيفًا، قليل الخير، منهك القوى.

وتتوالى صور زهير للحرب فتأتي الحرب في صورة امرأة ولود وهذه المرأة الولود لا تلد إناثًا وإنما تلد ذكورًا على ما يحب الناس ولكن هؤلاء الذكور لا يتأتى منهم خير؛ بل لا يتأتى منهم إلَّا الشر.

والحديث عن اللقاح والنتاج، ونتاج التوائم، ونتاج الغلمان وإغلال الأرض؛ الأصل فيه أن يكون في الخير، ولكن زهيرًا استخدم كل هذا في الشر للتهكم والسخرية، وهو على نسق الآية الكريمة (بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا

---

(١) لسان العرب- بتصرف ٣٠١/٩.

(٢) زهر الأكم في الأمثال والحكم ١٠٩/٢ الحسن بن مسعود اليوسي ط دار الثقافة – المغرب/ ط الأولى ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

أَليمًا) حيث استعمل لفظ البشارة مكان الإنذار تهكما"[١].وذلك أغيظ للمستهزأ بهم وأشد إيلامًا، وإياسًا لهم من ارتجاء الخير.

ولفظ (تنتج) في البيت لا يستعمل إلَّا على صيغة المبني للمفعول ومعناه: استبان حملها أو ولدت.وما زال زهير يستخدم أسلوب الخطاب للأحلاف وذبيان مبينًا لهم أن شر إثارة الحرب واقع عليهم حتى يذهب ما يظنه مشعل الحرب من أنَّه كاسب من ورائها خيرًا، إذْ إن رايات الحرب لا ترفع إلَّا في حالة القوة، وظن الغلبة وقهر العدو؛ لذلك كرر لفظ (لكم) في هذا البيت، وفي البيت الذي يليه بعد ذكره لفظ (فتعرككم).

وذكر لفظ غلمان يدل على الحداثة والانطلاق خلف الشهوات وفي هذا من المفسدة ما فيه لا سيما في زمن الحرب التي تحتاج إلى رأي ذوي الخبرة والتجربة، وقديمًا كانوا يقولون ما مفاده "استعن على حربك بأهل السن والمعرفة فإن رأي الشيخ خير من مشهد الغلام"[٢].وهذا معناه أن الحرب ستلد لكم من يغلب شهوة، ويزيد الأمر هياجًا بعد هياج، وهو يفيد استمرار الحرب وإطالة أمدها.

ثم نعت (الغلمان) بأشأم والشؤم هو الشر بعينه.قال الأعلم: "أشأم هنا صفة للمصدر على معنى المبالغة والمعنى: غلمان شؤم أشأم كما يقال: شغل شاغل"[٣].وابتداء زهير: الجملة التالية بلفظ "كلهم" يفيد الاستغراق، فإن الشؤم والشر الذي ستلده لهم الحرب لن ينجو منه مولود، ولن يكون من بين المولودين في الحرب غلام يحمل خيرًا أو يعين على خير.وجعل خبر هذا المبتدأ "كأحمر عاد"

---

(١) تفسير حدائق الروح والريحان- محمد الأمين الهرري ٤٤٢/٦- ط دار طوق النجاة- بيروت- الأولى ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.

(٢) لسان العرب ٣٢١/٣.

(٣) خزانة الأدب ١٣/٣.

وهو قدار عاقر الناقة وبه يضرب المثل في الشؤم[١].

وما زال زهير يأتي بما يدل على طول أمد الحرب واستمرارها زمنًا بعيدًا فأتى بلفظ "ثم" الدالة على التراخي وطول الأمد، ومراده "فتولد لكم أبناء في أثناء الحرب كل واحد منهم يضاهي- في الشؤم- عاقر الناقة ثم ترضعهم الحرب وتفطمهم، أي تكون ولادتهم ونشوؤهم في الحروب فيصبحون مشائيم على قومهم"[٢]."والإرضاع والفطم معروفان أي: لا تنزع إلَّا عن حولين وإنما أراد طول شدتها وأنها لا تنقطع إلَّا عن تمام لأنَّ المرأة إذا رضعت ثم فطمت فقد تمت"[٣].

ولكن ما السر في اختيار زهير لهذه الصورة الناقة التي تحمل وتنتج...؟ السر في هذا أن الحرب بين عبس وذبيان ابني بغيض بقيت أربعين سنة وخلال هذه الأربعين سنة لم تنتج لهم ناقة ولا فرس لاشتغالهم بالحرب[٤].وفي هذا نوع من المقابلة أو المفارقة التي يتضح فيها الشيء بضده.

ويواصل زهير تهكمه من مثيري الحرب الذين ظنوا أنهم سيجنون من ورائها خيرًا فيقول:

فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها

قرى بالعراق من قفيز ودرهم

أي: "لا يأتيكم منها ما تسرون به، مثل ما يأتي أهل القرى من الطعام

---

(١) شرح المعلقات السبع- الزوزني ص ١٤٤.

(٢) انظر المستقصى في أمثال العرب- الزمخشري ١٧٦/١ ط دار الكتب العلمية- بيروت- الثانية ١٩٨٧م.

(٣) خزانة الأدب ١٤/٣.

(٤) انظر العقد الفريد- لابن عبد ربه جـ ٦ ص ١٧ ط دار الكتب العلمية بيروت- الأولى ١٤٠٤ هـ.

والدراهم، ولكن غلة هذا عليكم ما تكرهون.قال أبو جعفر: فتغلل لكم معناه إنكم تقتلون ويحمل إليكم ديات قومكم فافرحوا فهذه لكم غلة"[١].ومراد زهير أن المضار المتولدة من هذه الحرب تربي على المنافع المتولدة من هذه القرى، وفي هذا زجر عن الغدر وإيقاد نار الحرب[٢].

(الغلة): الدخْل من كراء دار، وأجر غلام، وفائدة أرض، وأغلت الضيعة: أعطت الغلة فهي مغلة إذا أتت بشيء وأصلها باق[٣].واختار العراق من بين سائر البلدان لأنَّها البلد التي استكفَّت أرض العرب أي صارت كالكفاف لها فكأن زهيرًا يريد أن يقول للأحلاف وذبيان إن قرى العراق ملأت أرض العرب بما يكفيهم من المنافع وأنتم- بإثارتكم الحرب- ستملؤون بيوتكم بالمضار.

وكلمة لأهلها أهل الشيء: أخص الناس به[٤] وهو يعني أهل قرى العراق الذين يحرصون على غرس الخير وجني الثمار والأموال بخلاف الأحلاف الذين أهاجوا الحرب وسيجنون منها ما يكرهون فهم أهل الحرب والشر والضر. وهو لون من التقابل أو المفارقة الذي برز كثيرًا في شعر زهير، وفيه من ذم الأحلاف وذبيان ما فيه.

والقفيز مكيال كبير يسع اثنى عشر صاعًا أو اثنى عشر مدًا[٥] ولا يكال من الغلال بمثله إلَّا ما كثر وغزر وفاض، وبهذا يلمح إلى أن أهل الصلح والسلم تغزر بين أيديهم الخيرات والأموال في حين أهل الغدر والحرب يكثر فيهم العطب

---

(١) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ص ٢٧١.

(٢) انظر شرح المعلقات السبع للزوزني ص ١٤٤.

(٣) انظر القاموس المحيط ص ١٠٣٩.

ــ ولسان العرب ٥٠٤/١١.

(٤) انظر مقاييس اللغة ١٥٠/١.

(٥) شرح القصائد العشر – انظر تعليق م/ السيد محمد خضر ص ١١٤.

والضر. وفي هذا "إشارة إلى أن الحرب تسير في خط معاكس للحياة، فالذين يريدون الحياة لا يشعلون الحرب"(١). والذي يشعل الحرب "يعلن العداء للحياة نفسها ويعمل على قتلها وهلاكها"(٢).

لحى حلال يعصم الناس أمرهم

إذا طرقت إحدى الليالي بمعظم

الجار والمجرور الذي بدئ به البيت أثار خلافًا بين الشارحين فمنهم من يرى تعلقه بقول زهير: سعى ساعيًا... لحى حلال(٣) ومنهم من يرى أنَّه متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر هذا لحى حلال، ومن الباحثين في العصر الحديث من لم يتقبل ذينك الرأيين ورأى تعلقه بالفعل ألا أبلغ الأحلاف(٤).

وقد قلبت النظر مرات في هذا الجار والمجرور وما سبقه من أبيات ولم أسترح لكلا الرأيين، حتى وقع بصري على البيت الذي يسبق هذا البيت مباشرة ورأيت فيه كلمة "لأهلها" ورأيت البيت يتحدث عن استفاضة غلال أهل القرى ووفرة عطاء أرضهم. وأهل القرى هم المقيمون الذين لا يرحلون من مكان إلى آخر، بل استقر بهم الحال وطاب لهم المقام فحلوا في قراهم ولم يرحلوا، وهؤلاء الحالّون في بلادهم هم الحى الحلال لأنَّ إقامتهم واستقرارهم وأمنهم وسلمهم واشتغالهم بحماية الحياة وليس بمعاداتها وبالنتاج والزرع وتبادل المنافع= كل ذلك أدى إلى توالدهم وتناسلهم وتكاثرهم حتى أصبحوا في صورة هذا الحى

(١) معلقة زهير في ضوء نظرية النظم ص ٨٣.

(٢) نفسه ص ٨٤.

(٣) انظر شرح القصائد العشر ص ١١٤.

(٤) انظر معلقة زهير في ضوء نظرية النظم ٨٤، ٨٥.

ـ وكان صاحب خزانة الأدب قد ذكر عدة أوجه مغايرة في إعراب وموقع "لحى" – انظر ص١٩/٣.

الحلال أي الحى الكثير العدد والكثير البيوت.

وفي هذا إشارة إلى أن الاشتغال بالمنافع وبغرس الأرض يجعل الناس في غنى ووفر ولو زادت أعدادهم، ولذلك رأيت أن يكون لحى بدلًا من لأهلها في البيت السابق.

والحي يقع على شعب يجمع القبائل[١]واستخدامه كلمة الحى – دون سواها مما يشبهها– يشير إلى الحياة الرخيَة الناعمة الآمنة المطمئنة ، فهو خلاف الموت أو هو من الاستحياء الذي هو ضد الوقاحة [٢] وليس هناك وقاحة تشبه الغدر ونقض العهد.

والمقصود بالحلال: الكثير، وهو جمع حلة (بالفتح والكسر) بمعنى القوم النزول، وجماعة بيوت الناس[٣]، وهذا يتناسب تمام التناسب مع كلمة (أهل، وقرى) في البيت السابق، وقوله "يعصم الناسَ أمرهم" معناه إذا ائتمروا أمرًا كان عصمة للناس[٤].

ولا شك أن في هذا البيت مفارقة تصويرية قابل بها زهير هذه المأثرة بتلك الغدرة الخسيسة من الأحلاف وذبيان يوم أقسموا كل مقسم ليفعلن ما لا ينبغي، ويوم كتموا الله ما في صدورهم ليخفى؛ فكان فعلهم هذا إثارة للحرب وتهييجًا لها بعد سكونها وكان في هذا؛ الشؤم والشر كله، وتعريض الناس للقتل والتشريد والاستباحة، فكان ائتمارهم خرابًا وضياعًا ليس للجيل الحالي فحسب بل للأجيال المستقبلة، وقد عبر زهير عن ذلك بالأفعال: تلقح كشافًا، تنتج، تتئم،

---

(١) لسان العرب ٢١٥/١٤

(٢) مقاييس اللغة ١٢٢/٢.

(٣) القاموس المحيط ٩٨٦.

(٤) شرح القصائد العشر ١١٤.

ترضع، تفطم، فهؤلاء قوم حرصوا على حماية الحياة وجعل الناس في منعة يوم تنزل الكوارث وتحل النوازل، والأولون قوم أخذوا الناس إلى الخراب والتفاني على النحو الذي أتى في تصوير الحرب.

فالذين حرصوا على حماية الحياة غلَت له القرى الأقوات والأموال، أما الذين تسببوا في التفاني غلت لهم الحرب الدماء والشؤم... فكأن زهيرًا يريد أن يقول: إن الحياة تعطي الخير للأخيار، وتفيض الشر على الأشرار!!.

إذن مدح زهير هذا الحى بأنَّه يعصم الناس، ويمنعهم؛ لاسيما إذا طرقت إحدى الليالي بهول لا يطيقه الناس؛ لم يكن في حسبانهم ولم يأخذوا له الأهبة "إذا طرقت إحدى الليالي بمعظم" حيث تكون الحاجة إلى الحماية أشد، ويكون الانشغال بالنفس والعشيرة أكثر.

وحتى لا يتوهم متوهم أن هذه الحياة الرخيَة التي رفل فيها هذا الحى تسببت في خورهم وضعفهم أتى زهير بالبيت:

كرام فلا ذو الضغن يدرك تبله

ولا الجارم الجاني عليهم بمسلم

فهم يحوذون الفضائل والمكارم "كرامَ" وهم يلبسون ثياب العزة والنخوة فلا يجرؤ أحد على العدوان عليهم ولا يستطيع صاحب الثارات أن ينال منهم، وتمتد حمايتهم على كل من وليهم حتى من جنى وأجرم فإنهم يحمونه ولا يسلمونه، ولا يستطيع من امتلأ قلبه بالضغائن والأحقاد أن ينال منهم.

وألفاظ البيت بل وأدوات الشاعر تشي بنخوة الحى الكرام وعزتهم[١] فالضغن يدل على الحقد والعداوة والبغضاء، وفيه شمول وعموم في المعنى؛ قال

(١) انظر لسان العرب ٢٥٥/١٣.

ابن فارس "الضاد والغين والنون أصل صحيح يدل على تغطية شيء في ميل واعوجاج، ولا يدل على خير... والذي دلَّ على ما ذكرناه من تغطية الشيء قولهم: إن الاضطغان: الاشتمال بالثوب"(١)، ومثل هذا الذي غمرته الضغائن والأحقاد يطير إلى واتره وتدفعه أضغانه لسرعة الثأر، ولكن هيهات أن يدرك من هؤلاء الكرام غايته!، هذا المشتمل على الأضغان يلاحق الثأر من أجل الحصول عليه "يدرك" ولكنه لا يستطيع إدراكه ولا يستطيع اللحاق به لبعد ذلك عنه، ولمنعة الحى الكرام وعزتهم.

واختار زهير "تبله" ولم يقل ثأره ليدل بذلك على أن صاحب الضغن فسد قلبه بتلك الأضغان والأحقاد وخلا من الصلاح والسلامة(٢). وكل ذلك معين على افتراس الخصم والقضاء على المعادي ولكن لم يستطع صاحب الضغن والتبل أن يشفي صدره وغليله من هذا الحى الكرام. وهذا كله يشي بعزة القوم ومنعتهم.

وكان من عادة العرب ألا يسلموا من جنى من أبنائهم إلى عدوهم؛ بل يظلون يحمونه ويمنعونه مما يمنعون منه أنفسهم وهذا ما ذكره زهير في الشطر الثاني: (الجارم) الذي يجرم نفسه وقومه شرًا ومثلها كلمة (الجاني) التي أتت مؤكدة لنظيرتها وأكثر مبالغة، كما زيدت الباء في (بمسلم) لتأكيد النفي.

وهكذا جاءت الأبيات الثلاثة (فتغلل لكم... لحى حلال... كرام...) مترابطة ومتكاملة في أداء المعنى الذي يريده الشاعر والتي صوَر بها حسن حال من يحيا للسلم وحراسة الحياة وإعمار الكون، من حيث وفرة الغنى، وكثرة العدد، والمنعة والعزة وحيازة المآثر والفضائل.

---

(١) مقاييس اللغة ٣/٣٦٤.

(٢) انظر مقاييس اللغة ١/٣٦٣.

والبيتان الآتيان تتمة صور الحرب السابقة، ففيما مضى صور زهير الحرب في صورة ناقة تلقح وتحمل وتنتج، وفي صورة ولود تنتج ثم ترضع فتفطم، وهذه المرحلة الأولى للنتاج الذي أنتجته الحرب، وهي مرحلة الاعتماد على الغير في حال الضعف والصغر، ثم أتبع زهير هذه المرحلة بمرحلة القوة والانطلاق والاعتماد على النفس حيث الرعي ثم الإيراد للسقي ثم الإصدار إلى المرعى مرة أخرى، فكيف صور زهير هذه المرحلة؟ لقد أتت صورته الآتية أشد تنفيرًا من سابقتها، مثيرة للاشمئزاز الذي تقشعر منه الأبدان يقول زهير:

رعوا ما رعوا من ظمئهم ثم أوردوا

غمارًا تفرَّى بالسلاح وبالدم

فقضوا منايا بينهم ثم أصدروا

إلى كلأ مستوبل متوخم[1]

هذا عمل الجيل الذي أفرزته الحرب، أو النتاج الرديء وغلمان الشؤم، وقد أراد زهير أن يقول: إنهم تركوا الحرب مدة ثم رجعوا فحاربوا وكثر بينهم القتل ثم خرجوا إلى شأن وخيم العاقبة.

اتفق أكثر الشراح على أن مراده "بـ رعوا ما رعوا من ظمئهم" أنهم تركوا الحرب مدة لرمِهم أمرهم وإصلاحهم حالهم "ثم أوردوا" عادوا للحرب مرة أخرى، وقد ساق هذا العود في أسلوب تهكم وهزء لأنَّ الإيراد وهو سقي الأنعام خير، وجعل زهير هذا الإيراد ليس في ماء ضحل أو قليل وإنما جعله في ماء كثير (الغمر) ولم يرض أن يأتي به مفردًا وإنما جمعه ليصبح إيرادهم في (غمار)،

---

(١) الظمء: ما بين الشربتين- غمارًا: جمع غمر وهو الماء الكثير المتجمع- تفرَى: تشقق، وأصلها بتاءين- قضوا منايا: أحكموها وأنفذوها- الكلأ: العشب- مستوبل: مستثقل، والوبيل: الوخيم الذي لا يمرئ، والمستوبل: السيء العاقبة.

ولكنه يصدمنا بجعله هذه الغمار تنشق وتنفجر وتنبجس لا بماء زلال ولا بماء عكر، وإنما جعل تشقق هذه الغمار بالسلاح وبالدماء ، أي "صاروا إلى حرب يستعمل فيها السلاح وتسفك فيها الدماء"(١).

ويلاحظ أن زهيرًا أوجز حينما تكلم عن مدة ترك الحرب، وأتى بالكلام مبهمًا "رعوا ما رعوا"!! دون التصريح بالمعنى والإعراب عنه بل قصد إلى إغماضها وإغلاق أبواب الكلام دونها(٢) إذْ الخطب جلل حيث الحرب مشتعلة يفني الناس فيها بعضهم بعضًا فكيف له أن يتحدث عن حال السلم والصلح؟ فالموقف هنا يستدعي الإيجاز، والمقام يتطلب الإبهام.

ثم حينما أراد أن يتحدث عن الحرب أطال بثلثي البيت وبالبيت الذي يليه، ولما كان مراده تقبيح الحرب عمد إلى عدة وسائل منها التهكم، والهزء، ومنها المبالغات باستخدام ألفاظ الجموع (غمار- منايا) وباستخدام الكلمات ذات الحروف المضعفة (تفرّى- فقضَّوا) ومنها تكرار حرف الجر في قوله (وبالدم) وكان يكفيه أن يأتي باللفظ معطوفًا على سابقه دون تكرار للباء ولكنه أبى إلَّا أن يأتي الكلام في أسلوب مؤكد، ومنها التوكيد بألفاظ مترادفة (مستوبل- متوخم).

وكذلك عمد إلى التضاد في (أوردوا- أصدروا) فعندما قال زهير ثم أصدروا تشوق السامع إلى الخروج إلى أمر محبوب أو إلى صلح وأمن ودعة، ولكن زهيرًا فاجأ السامع بأن جعل صدورهم إلى أمر بغيض كريه مستثقل وخيم العاقبة!

وفي البيتين مفارقة تصويرية عجيبة، قارن هذين البيتين بأبيات أتت في رحلة الظعائن، قارن بين الغمار التي تفرى بالسلاح وبالدم، وبين قول الشاعر:

---

(١) خزانة الأدب ١٨/٣.

(٢) انظر منهاج البلغاء وسراج الأدباء حازم القرطاجني ٥٥/١ المكتبة الشاملة (ترقيم آلي).

فلمـــــا وردن المـــــاء زرقـــــا جمامـــــه

وضـــــعن عصـــــى الحاضـــــر المتخـــــيم

وقارن ما علا الظعائن من دلّ الناعم المتنعم، وما هم فيه من زينة بهيجة في وعالين أنماطًا.... البيت وفي البيت:

كـــــأن فتـــــات العهـــــن في كـــــل منـــــزل

نـــــزلن بـــــه حـــــب الفنـــــاء لم يحطـــــم

قارن بين هذا وإصدار المحاربين إلى كلأ مستوبل متوخم!!

كيـــف تـــرى هـــذا المنظـــر الكئيـــب بجـــوار تلـــك الصـــورة الجميلة البهيجة في البيتين أو بجوار ما فيهن من ملهى ومنظر أنيق .

وفـــــيهن ملـــــهى للطيـــــف ومنظـــــر

أنيـــــق لعـــــين النـــــاظر المتوســـــم

فرق كبير بين مخلفات الحرب، ومعطيات السلام التي جعلت الظعائن فـــي صورة بهيجة ولهو محبب... إلخ.

ثم قارن بين فعل الساعيين؛ وقد تبزَل ما بـــين العشـــيرة بالـــدم، وبـــين المحاربين الذين أوردوا غمارا تفرى بالسلاح وبالدم – (لاحظ اتحاد المعنى؛ ففي كلا الموقفين تشقق بالدم)= تجد أن الســـاعيين تـــداركا عبســـا وذبيـــان بعـــدما تفانوا....وتجد المحاربين: قضوا منايا بينهم ثم أصدروا...ولاحظ إصدارهم كـــان إلى كلأ مستوبل متوخم في حين كان خروج الساعيين كما عبر عنه الشعر:

فأصبحتما منها على خير موطن.....!!!

عظيمين في عليا معد هديتما.....!!!

أرأيت إلى تلك المفارقات التصويرية العجيبة التي ازدحمت بها معلقة زهير!!! ولعلَّ نظرا أدق وفكرًا أعمق يكشف الكثير مما قد يكون قد خفي عليّ.

* * * * *

ويأخذ زهير فى الحديث عن السبب الأكبر وراء إثارة الحرب بعد سكونها، وإهاجتها بعد هدوئها ، عن ذلك الشخص الذى ذمه زهير ذمًا منكرًا؛ إذ جرده مما يجب أن يتصف به ذوو المروءة والمآثر .

فصل المعلقة القادم يتحدث عن غدرة حصين بن ضمضم ونقضه لعهد الصلح بعد أن استقر الناس عليه ورضى الفريقان المقتتلان به ، وكان لحصين هذا أخ يسمى هرم بن ضمضم؛ قتل فى الحرب بين عبس وذبيان ، وكانو أبوه " ضمضم " قتل من قبل فى تلك الحرب قتله عنترة بن شداد العبسي ، وقد ذكر ذلك فى معلقته :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر
للحرب دائرة على ابني ضمضم
الشاتمى عرضى ولم أشتمهما
والناذرين إذا لم القهما دمى
إن يفعلا فلقد تركت أباهما
جزر السباع وكل نسر قشعم [1]

وهذا الفصل تناوله د/ محمد أبو موسى بتحليل وتوضيح يشفي الصدور[2]، لا يحتاج معه إلى فضل بيان ، وسأحاول هنا أن أبحث عن لفتات فنية

(١) ديوان عنترة بن شداد ص ــ٨٤ــ ط الآداب ، بيروت ، لبنان، ١٩٨٣م

(٢) انظر : الشعر الجاهلي دراسة فى منازع الشعراء ص ٣٩٤ وما بعدها .

لم تذكر فيما وقعت عليه يدي من شروح للمعلقة. يبدأ فصل المعلقة الخامس بقول زهير :

لعمري لنعم الحي جرّ عليهم

بما لا يواتيهم حصين بن ضمضم

وكان طوى كشحًا على مستكنة

فلا هو أبداها ولم يتقدم

هذا فصل تهكم وهزء وذم وقد بدأه زهير بمدح الحي عمومًا ، وهو حي مرة من بني ذبيان ، وقصر ذمه وتهكمه على واحد منهم هو حصين بن ضمضم ، الذى امتنع من الصلح واستتر يوم اصطلحت قبيلة ذبيان مع قبيلة عبس ، وذلك لأن ورد بن حابس كان قتل هرم بن ضمضم في الحرب، فحلف حصين لا يغسل رأسه حتى يقتل وردًا أو رجلًا منهم ، ثم أقبل رجل من بني عبس فنزل بحصين بن ضمضم ، فلما علم أنه عبسى قتله فكاد الصلح أن ينتقض، فسعى بالصلح وتحمل الدية الحارث بن عوف وهرم بن سنان المريين ، ولهذا مدحهم زهير بقوله لنعم الحي [1]وأراد بذلك أن يغسل قلوب القوم من الحقد على الحارث بن عوف وهرم بن سنان، وبذلك يطفئ الحرب التي في طريقها للاشتعال ، وكان زهير محبًا لمعشر الساعيين ، وقد أكثر من مدحهم فى شعره ، ومنه :

إلى معشر لم يورث اللؤم جدهم

أصاغرهم وكل فحل له نجل

إذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهم

طوال الرماح لا قصار ولا عزل

(١) انظر : خزانة الأدب جـ٧ ص١٣ .

بـــ خيـــل عليهـــا جنـــة عبقريـــة

جـــديرون يومـــا أن ينـــالوا فيســـتعلوا [١]

وقول العربي لعمرك : قسم ؛ يحلف بعمره أى حياته ، والعـين والمـيم والراء أصلان صحيحان أحدهما يدل على بقاء وامتداد زمان ، ومن ذلـك يقـال عمر الناس : طالت أعمارهم ومن الباب عمارة الأرض . [٢]

وقد اختار زهير لفظ القسم هذا دون غيره ولعل فى ذلك إشارة أو ترغيبًا للناس أن يلتفتوا إلى ما يطيل أعمارهم وهو الصلح والسلم وأن يتركوا ما يؤدي بهم إلى إحكام المنايا وإنفاذها على ما تقدم ذكره ، فضلًا عما فيه من إشارة إلـى عمارة الأرض حتى تغل لهم خيرًا لا ينبت إلا فى جو السلم ، وتذكر البيت :

فتغلـــل لكـــم مـــالا تغـــل لأهلـــها

قـــرى بـــالعراق مـــن قفيـــز ودرهـــم

و"جر عليهم" معناها جنى عليهم جناية ، ولو قال جنى بدلًا منها لم تكـن لتؤدي المعنى المراد فلو وضعت أصلي هاتين الكلمتين أمام ناظريك وجدت فرقًـا فأصل جنى: أخذ الثمرة من شجرها [٣] ، وليس فيما فعله حصين بن ضمضم ثمر ولا شجر ، فالشجر والثمر يشي بخير عميم ، أما كلمة جر وجريرة فأصلها مـد الشئ وسحبه ، فالحرب كانت قد ابتعدت شرورها بهذا الصلح الذى انعقـد بـين الفريقين ، وبفعلة حصين هذا قرَب وجر إلى قومه شرورًا كانوا عنها بمنجى .

---

(١) انظر : مختارات شعر العرب لابن الشجري ٢ / ١٦ ضبط وشرح / محمود حسن زنـاتي ــ ط الاعتمار ــ مصر ــ الأولى ١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م .

(٢) انظر : مقاييس اللغة ٤ / ١٤٠ .

(٣) انظر : مقاييس اللغة ص٤٨٢ .

وقولـــه بما لا يواتيهم يقوم مقام السبب فى مدح زهير لهذا الحـــي مـــن ذبيان فما فعله لم يكن بعلمهم ولم يكن يوافقهم ، ولما كانت هذه الغدرة من فرد واحد ولم يتابعه أحد من عشيرته ذكره باسمه " حصين بن ضمضم " وفـــى هـــذا ترغيب فى السلم وحث على الصلح وترك القتال إذ صاحب الجريرة فرد من حـــي كرام لم يوافقوه على غدرته .

وانظر إلى أبيات المدح السابقة تجد أسلوبًا مختلفًا إذ ذكر فيها الساعيين بصفتهما ولم يذكر لهما اسمًا، ونسبهما إلى جد كريم ، وذكـــر تـــداركهما عبســـا وذبيان ، وحرصهما على إدراك السلم حتى تعم السلامة . ولم يفعل شيئًا من ذلك مع حصين؛ بل كأنه أخرجه من بني قومه الأشراف، وجعل فعله جناية وجريـــرة يجرها إلى قومه؛ مما يتسبب لهم فى العطب والضرر ... وهذا لون من المفارقة التصويرية تزيد بياض الساعيين بريقًا ، وتنشر القتام حول حصين بن ضمضم . ويواصل زهير حديثه فى ذم حصين فيقول :

وكـــان طـــوى كشـــحا علـــى مســـتكنة

فـــــلا هـــــو أبـــــداها ولم يتقـــــدم

وكأن هذا البيت يؤكد معنى البيت السابق الذى يبرئ به ساحة الحي مـــن ذبيان ، ويشي بهذا اختيار زهير لكلمة " طوى " الدالة على إدراج شـــيء حتـــى يدرج بعضه فى بعض ، فهو أكثر خفاء وسترًا فى نفسه لا يطَّلع عليه أحـــد ولا يصل إنسان إلى ما أكنه فى صدره، ويقال طوى كشحه لمن مضى علـــى وجهـــه وغاب عنه ، وطويت كشحى على الأمر : إذا أضمرته وسترته ، والكاشح الـــذى يتباعد عنك [١] ، ترى من فقه الألفاظ أن ذبيان برءاء مـــن حصـــين ، وحصـــينًا يمضى على وجهه ويستتر ويغيب عن قومه ويباعد بينه وبينهم، فهـــو منفـــرد

(١) انظر : مقاييس اللغة، مادة " طوى " ٣ / ٤٢٩ .

بفعلته، متفرد بغدرته.

ثم أتبع ذلك بلفظ " مستكنة " وترى فيها السين والتاء الدالتين على الطلب " طلب اكتنان غدرته " دلالة على حرص حصين على ألا يبدو منه شيء ، واكتفى بذكر الصفة عن الموصوف ، ولم يقل " غدرة مستكنة " لأن غدرته معلومة لا تحتاج إلى بيان ، وإنما الذى يحتاج إلى توضيح وإظهار هو استتاره وإكنانه ذلك فى نفسه ، ويؤكد هذا المعنى بقوله "فلا هو أبداها ". وأما قوله " لم يتقدم " أي إلى الصلح كما فعل سائر الناس.

وقال سأقضي حاجتي ثم أتقى

عدوى بألف من ورائي ملجم

هذا البيت يجسد في حصين رذيلة مهينة، وهي جبنه وخوره، واعتماده فى حماية نفسه على غيره ، وهذا على نقيض ممادح العرب الذين كانوا يتمدحون بالنجدة وإغاثة المستغيث ، ومنه :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم

طاروا إليه زرافات ووحدانا[1]

أما حصين فلم يكن كما كان الرجال فى عصره ، فهو سيفعل فعلة خبيثة تجر إليه وإلى قومه شرًا مستطيرًا ، وسيقتل قاتل أخيه أو كفؤا له ثم يجعل بينه وبين عدوه ألف فارس ملجم فرسه . وليس بعد هذا ذل وهلع !!

وألفاظ زهير تشى بمهانة فعله وعزمه، انظر إلى "سأقضى حاجتي" إشارة إلى ما عزم عليه وما أضمره فى نفسه وما توحي به هذه الكلمة لا يحتاج إلى تعليق ، ثم جعل الذى يتقى به ليس واحدًا بل ألفا ، وهذا الألف سيكونون وراءه،

(١) البيت لقريط بن أنيف أحد بني العنبر، انظر: شرح ديوان الحماسة، التبريزي ٤/١ ط دار القلم، بيروت، لبنان.

وليسوا بين يديه يذبون عنه وهو متقدم إلى عدوه، بل خلفه يحمون دبره وهو فار من ميدان القتل، وجعل هذا الألف ملجمًا " بألف من ورائي ملجم " إشارة إلى استكمال العدة وهذا يشي بشدة ذله وخوره وهلعه .

هذا الذى أشعل الحرب أو كاد أن يحييها بعد أن ماتت ، لا فؤاد له ولا صبر له ولا شجاعة !!هذه صفة حصين بن ضمضم ثم يزيده هزءًا وتهكمًا ، فيقول :

فشد ولم ينظر بيوتا كثيرة

لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم

وانظر إلى كلمة " شد " الدالة على قوة فى الشيء[1]، فقد أخذ الرجل بقوة ، ومن هذا الرجل الذى شد عليه، وأخذه بقوة؟ إنه ضيفه ونزيله فى بيته ، جلس آمنًا مستأمنًا ينتظر من حصين ما ينتظر الضيف من مضيفه !! فهو يرغب فى إكرامه ، ولعله ما نزل به إلا بعد أن أخذ منه الجوع والإعياء بسبب التنقل بين الصحارى ، فهل من كان فى مثل حال هذا الضيف يحتاج إلى "شد" أو يحتاج إلى الاستعانة عليه ببيوت كثيرة أو قليلة؟ !!

قوله : " لم ينظر بيوتًا كثيرة " كأنه توكيد لعدم موافقة الحي على غدرة حصين أي لم يعلم قومه بفعله ، ولو علموا لفزعوا لإغاثة العبسي ولم يدعوا حصينًا يقتله، وإنما أراد زهير بقوله هذا ألا يفسدوا صلحهم بفعلة حصين . ويصح أن يكون هذا الأسلوب أسلوب تهكم وهزء بحصين فكأن عادته ألا يفعل فعلا إلا إذا جمع الناس من حوله يتقوَى بهم ويشدون من أزره، وليس من عادته أن ينفرد بأمر.

---

(١) انظر : مقاييس اللغة ٣ / ١٧٩ .

و " أم قشعم " كنية المنية وألقت رحلها أي سكنت واستقرت ، فحصين على هذا لا يقتل فى حرب ولا فى ميدان معركة ، بل يقتل فى صلح نزيلًا له حين حطت الحرب رحلها وسكنت أو حين حطت المنية رحلها ولم تعد تتحرك بين الناس لاختلاس نفوسهم [١] ، وليس بعد هذه المهانة مهانة!!، ولا لؤم يشبه لؤم ابن ضمضم ، وليس بعد هذا تهكم ولا هزء ؛ إذ استنفر كل قواه لقتل ضيف فى بيته فى حال يسر تنفيذ هذا الأمر وسهولته .

إذن: ألقت المنية رحلها فهي لا تتحرك ولا تمارس عملها، وأمر هذا العبسي أصبح سهلًا ميسورًا إذ هو ضيف لا يحمل سلاحًا ولا يعد عدة ، ومثل هذا الفعل لا يحتاج إلى رجل قوي حامل لسلاح حرب ولكن زهيرًا جعل حصينًا أسدًا !! شاكى السلاح!! مقاذف!! ، له لبد!! ، أظفاره لم تقلم !!

كل هذه الأوصاف من باب الهزء والتهكم ، فهو ليس أسدًا بل هو جبان رعديد لم يستطع أن يثأر لأبيه وأخيه فى الحرب، بل لم يثأر إلا بعد أن سكنت الحرب وحطت المنية رحلها!! فأي شجاعة وأي أسدية هذه التى وصف زهير بها حصينًا ؟ وأي حاجة إلى كمال السلاح وكمال العدة " شاكى السلاح " ، ومقاذف معناها الذى يقذف به فى الحروب كثيرًا لحسن بلائه وغنائه، وهذا ليس من صفة حصين في الواقع، وقوله " له لبد " إشارة إلى أنه أسد قوي ذكر إذ أنثى الأسد " اللبؤة " ليس لها لبد ، والمراد بأظفاره لم تقلم: لا يعتريه ضعف ولا يعييه عدم شوكة [٢]!! ، هل رأيت شيئًا من هذا فى حصين ؟ بل هو على سبيل التهكم والهزء . ثم يزيد فى تهكمه وهزئه بحصين فيقول :

---

(١) انظر : شرح الشواهد الشعرية فى أمَات الكتب النحوية، ص٧٧ ، وص٣٨٤ .

(٢) انظر : شرح المعلقات السبع للزوزني ص١٤٦ .

جـــرئ متـــى يظلـــم يعاقـــب بظلمـــه

ســـــريعًا وإلا يبـــــد بـــــالظلم يظلـــــم

أما ألفاظ البيت فهي واضحة ، ومعناه أشد وضوحًا ، ولكني أقـف عنـد قولـه : " يعاقب بظلمه سريعًا " فهل عاقب حصين بظلمه سريعًا ، لقد اسـتمرت الحرب أربعين سنة وظل حصين فيها ذليلًا لا يأخذ بثأره من قاتل أبيه ولا من قاتل أخيه ، ولم يتم له ذلك إلا بعد أن تم الصلح واستأمن الناس ، أما فى أثناء الحرب فلم يكن إلا شتامًا يهذي بالسب والشتم على نحو ما جاء في شعر عنترة:

الشـــــاتمي عرضـــــي ولم أشـــــتمهما

والنـــــــاذرين إذا لم القهمـــــــا دمـــــــي

وفى هذه الأبيات التى تتهكم بحصين مفارقة تصويرية مع بيتي:

لحـــي الحـــلال يعصـــم النـــاس أمـــرهم

إذا طرقـــــت إحـــــدى الليـــــالي بمعظـــــم

كـــرام فـــلا ذو التبـــل يـــدرك تبلـــه

ولا الجـــــارم الجـــــاني علـــــيهم بمســـــلم

أين هذه الصفات من صفة حصين فرق كبير ومفارقة رائعـة . وكـذلك تأتي مفارقة أخرى بين تصرفات حصين ومساعى الساعيين ، تلك المفارقة تتضح من الأبيات الثلاثة الآتية :

لعمـــرك مـــا جـــرت علـــيهم رمـــاحهم

دم ابـــــن نهيـــــك أو قتيـــــل المـــــثلم

ولا شـــاركت فـــى الحـــرب فـــى دم نوفـــل

ولا وهـــــب فيهـــــا ولا ابـــــن المخـــــزم

فكـــلا أراهـــم أصـــبحوا يعقلونـــه

علالـــة ألـــف بعـــد ألـــف مصـــتم

وافقت بداية الأبيات بداية الأبيات السابقة ، فقد بدئ كـل منهـا بالقسـم (لعمـــرك) وتبـــدأ المفارقـــة بنفـــي إيقـــاع الجريـــرة هنـــا " ما جرت " فى حين أثبتت هناك بقولـه " جر عليهم " وانظر عاقبة الجريرة فى الأبيات السابقة "أبيات حصين" (أوردوا غمارًا ... فقضوا منايا ... أصدروا إلـى كلأ ...) وانظر كذلك عاقبة الجريرة فى الأبيات التـي صـورت آثـار الحـرب (فتعرككم عرك الرحى ...) .

أما الساعيان اللذان أصلحا بين العشائر ، مع أنهم لم يشاركوا فى الحرب، ولم يشهروا فيها سلاحًا ، ولم يجرُوا على قومهم شرًا ، مع ذلك كله فإنهم تحملوا ديات القتلى الذين أراقت الحروب دماءهم ، بل عقلوا الذين قتلـوا قبـل اشـتعال المعارك ، وقد " قصد زهير أن يبين براءة ذمتهم عن سفك دمهم ليكون ذلك أبلغ في مدحهم ".[١] وقد عد زهير خمسة من الرجال قتلوا قبل بدء المعـارك : ابـن نهيك ، قتيل المثلم ، نوفل ، وهب ، ابن المخزم ، " وكأنما خشى الشاعر أن تطل الفتنة برأسها من جديد فذكَر المتحاربين مرة ثانية بأن الذين تحملوا ديات القتلى لم يرتكبوا فيها أية جناية وإنمـا تبرعـوا بأموالهـم حبًا فى السلام ورغبة فى الصلح ، فدفعـوا ديات جميع من طلبت لهم ديات ، ومنهم مـن لـم يقتـل فـى الحرب، وقدموا عن طيـب خاطـر ألوف الإبل أفواجًا بعد أفواج ".[٢]وبعد أن نفى مشاركتهم (ما جرت) وأكد هذا النفي بقولـه (ولا شاركت) أتـى بلفـظ (كل) الدالة على الاستغراق ، وشمول عقلهم لجميع القتلى ، وقـدم هـذا اللفـظ

(١) خزانة الأدب للبغدادي ٣ / ١٩ .

(٢) فى تاريخ الأدب العربي ، علي الجندي ــ ط مكتبة دار التراث ١٤١٢هـ / ١٩٩١م .

الواقــع مفعــولًا على فعله بل جعله فى صدر البيت ، وأتبعه بالفعل (أراهــم) البصرية المؤكدة لعملهم ومأثرتهم إذ هي رأى العين وليست قصصًا يحكي ، وكان هذا العمل منهم في وضح النهار ، وكانت تلك الرؤية فى وضح النهار ، ودل على ذلك بالفعل (أصبحوا) وقد اختار الشاعر كلمة " يعقلونه " الدالة على أداة الديــة أداء فعليًا ، قال الأصمعي : عقلت القتيل: أعطيت ديتــه.[١] فلــم يكــن تحملهــم الديات وعدًا مؤجلًا ، ولم يدخل تحملهــم للديــات تسويــف ، وإنمــا كــان مناجزة ، كما لم يدخل عطاءهم انتقاص؛ وإنما كانت ألوف الإبل التــى أخرجــت كاملة وتامة (مصتم) بل كانت مزيــدة ، وقد عبر عن ذلك بقولــه (علالــة) الدالة على الزيادة .

إذن فهمنا من الأبيات أن عطاءهم اتصف بصفات عديدة فقد كان مناجزة، لم يدخله تسويف ، وكان تامًا لم يدخله نقص بل كان مزيــدًا ، ولــم يكــن فــى إخراجهم تردد أو لجلجة نفس ، فكلمة (مصتم) تدل على تمام وقوة . [٢]

وليس بعد هذا السخاء سخــاء ، ولــيس بعــد هذا المدح مدح، فــانظر العوائد التى عادت على قوم الساعييــن بسبب سعيهما، ثم انظر إلــى الجرائــر والكوارث التى تسبب فيها مهيجــو الحــرب والغــادرون بالعهد ، تجد فرقًا بعيدًا بين رجــال ورجال ، وتعلــم أن كــل أبيــات القصيــدة ســيقت لخدمــة مــدح الساعيين، مدحا صريحا، أو مدحا مستنبطا من مقارنــة أوصاف المرذولين .

****

ثم أراد زهير أن يتم الصلح بنجاح ، وينفذ تنفيذًا كاملًا عن رضــا تــام ، واقتناع من جميع الأطراف فساق لهم مجموعة من الحكم تساعد على ذلك ، وقد

---

(١) انظر : مقاييس اللغة جـ٤ ص٦٩ ، ٧٠ .

(٢) مقاييس اللغة ٣ / ٣٣٣ .

جاءت هذه الحكم قوية الصلة بالأحداث التى اكتنفت المعلقة والتى كانت سببًا فى إنشادها .

وقد عد ابن طباطبا فى كتابه عيار الشعر أبيات الحكمة هذه من " الأشعار المحكمة ، المتقنة ، المستوفاة المعاني ، الحسنة الوصف ، السلسة الألفاظ ، التى قد خرجت خروج النثر سهولة وانتظامًا فلا استكراه فى قوافيها ولا تكلف فى معانيها " . (١)

يقول زهير :

ومن يعص أطراف الزجاج فإنه

يطيع العوالي ركبت كل لهذم

فى بداية حديثي عن أبيات الحكمة أذكر أمرًا لابد للقارئ أن يقف عليه وهو التباين الواضح فى ترتيب هذه الأبيات وفى عددها فهي عند الزوزني سبعة عشر بيتًا ، وعند التبريزي ثلاثة عشر بيتًا ، وقد كان البيت المذكور أول أبيات الحكمة عند التبريزي ، وهو فى ترتيبه هذا مناسب تمام المناسبة لما سبقه من أبيات تتحدث عن الحرب وتقبيح أحوالها ، ومدح من دفعوا ديات قتلى لم يسهموا فى قتلهم ثم جاء عقيبها هذا البيت الذى يحمل معنى : من لم يقبل الصلح بآثاره الحسنة يقبل الحرب بأحوالها الشنيعة ، وفى البيت تمثيل حيث أشار إلى الصلح بقوله " الزج " أي مؤخرة الرمح التى لا يقاتل بها ، وأشار إلى الحرب بقوله " العوالي " وعوالي الرمح : أسنته التى يقاتل بها (٢) ، وقال أبو عبيدة فى معنى

---

(١) عيار الشعر . ابن طباطبا ص٨٣، ت/عبد العزيز المانع ــ ط مكتبة الخانجي ــ القاهرة .

(٢) انظر: الصناعتين فى الكتابة والشعر ــ العسكري ــ ص٣٥٦ ، ت/ البجاوي أبو الفضل إبراهيم ــ ط المكتبة العصرية ــ بيروت ، ١٤١٩هـ .

البيت : من لم يقبل السلم عفوًا قبلها بعد أن يغلب ويقتل قومه . (١)

وكان من عادة العرب إذا التقى الفريقان للحرب وجه كل فريق إلى الآخر أزجة الرماح يعلموهم بذلك أنهم لا يريدون الحرب وسعى الساعون فى الصلح فإن أبتا إلا التمادى فى القتال قلبت كل واحدة منهما الرماح واقتتلتا بالأسنة . (٢)

وإذا جاء هذا البيت مناسبًا لأحداث القصيدة ومتلائمًا مع ما سبقه من أبيات ؛ فكذلك كان البيت الآتي :

ومن يوف لا يذمم ومن يفض قلبه

إلى مطمئن البر لا يتجمجم

والتناسب فى الأبيات المتوالية وتلاؤمها أدى إلى التلاحم وزاد من هذا التلاحم عطف الأبيات بعضها على البعض بالواو فجاءت حسنة النسق . (٣) وتناسب البيت مع أحداث القصيدة واضح تمام الوضوح إذ هو يتحدث عن الوفاء، وعلى الوفاء بنيت القصيدة حين استهلها بقوله " أمن أم أوفى " وكما رأيت كان سبب إهاجة الحرب بعد سكونها ترك الوفاء أو الغدرة التى أتى بها حصين بن ضمضم فكادت أن تعيد الحرب جزعة كما كانت ، لولا أن تداركها الحارث بن عوف وأرسل دية الرجل العبسي إلى بني عبس مع ابن له ، وخيَر القوم بين أن يقتلوا ولده أو يأخذوا دية قتيلهم ، فقبلوا الدية ومصالحة إخوانهم .

---

(١) المعاني الكبير فى أبيات المعاني جـ٢ ص٨٨١ .

(٢) انظر : نهاية الأرب فى فنون الأدب ـ النويرى ٧ / ٥٥... وانظر : الذخائر والعبقريات ـ عبد الرحمن البرقوقي ٢ / ٢٥٨ ، .

(٣) انظر : تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر ـ لابن أبي الأصبع ص٤٢٧ ت/ حفني شرف ـ ط لجنة إحياء التراث الإسلامي.

وألفاظ ما بقى من البيت وتركيبه يحتاج إلى بعض بيان، أولا معناه العام: من أفضى قلبه إلى الإحسان المطمئن الذى لا شبهة فيه؛ لم يشتبه عليه أمره فيتردد فيه ، والبر ضد الفجور وجمجم الرجل وتجمجم إذ لم يبيّن كلامه.(١)وأفضى إلى الشئ: وصل إليه وأصله أنه صار فى فضائه وحيزه.(٢)

وهذا البيت يصلح لمخاطبة أطراف الحرب فجملته الأولى تصلح لكلا الأطراف ، للساعيين اللذين وفيا فهما لا يذمان ، وللأحلاف وذبيان وكأنها دعوة لهم للعودة إلى الوفاء وموجبات المدح ، وبقية البيت كأنها خطاب للحصين ومن تبعه فى الغدر أو رضى به ، وهو كشف عما فى دخائلهم من فساد إذ لم تكن قلوبهم مطمئنة بالصدق ، وإنما دخلها الغش والفساد والرغبة فى الغدر والفجور ، فلم تصل قلوبهم إلى الصدق فى الوعد والعهد لذلك كانوا مترددين فى صلحهم وكادوا أن يهيجوا الحرب بعد أن سكنت ، ولفظ " يتجمجم " وما فيه من تكرار الجيم والميم هو أدل الألفاظ على حال التردد وعلى عدم الوضوح المؤدى إلى خروج كلام يتلجلج على اللسان فى غير إبانة كاشفة .

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه

ولو رام أسباب السماء بسلم

والبيت من الوضوح فى الألفاظ والمعنى بحيث لا يحتاج إلى بيان ، ولكني أقف عند مناسبته للقصيدة وللأحداث التى اكتنفتها ، ولعل أكثر الأحداث ملاءمة لهذا البيت ما فعله الحارث بن عوف يوم أرسل ولده يقود دية ورد بن حابس الذى قتله حصين بن ضمضم بعد تمام الصلح ، مخيرًا بني عبس بين قتل ولده وأخذ اللبن ، هذا الصنيع الكبير لو لم يفعله الحارث وخشى على ولده من الموت

(١) انظر : لسان العرب ١٢ / ١١٠ (جمم) .

(٢) انظر : لسان العرب ١٥ / ١٥٧ .

ولم يرسله إلى عبس ليكون فداء لقتيلهم إن أرادوا ، لو لم يفعل هذا خوفًا وهيبة من المنية وأسبابها لكان قد أدى خوفه إلى منية محققة لا ينجو منها ولا يجد مفرًا ولو صعد إلى نواحي السماء .

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله

على قومه يستغن عنه ويذمم

والبيت كسابقه فى تمام الوضوح ، ولكن ما السر فى مجيء زهير بهذا البيت ، وليس فى القصيدة بخل بل فيها كرم وسخاء وأفضال ؟ هل كان خلف الستار رجال بخلوا بأموالهم ، ولم يقدموا يد العون للحارث وهرم فى تحملهم الديات ، ولم يكن يعنيهم أن تهدأ الأحوال وتسكن الحرب ؟ ربما كان ذلك وإن كانت الأخبار التاريخية لم تذكر شيئًا يدل عليه .

ومن لا يزل يسترحل الناس نفسه

ولا يعفها يومًا من الذل يندم

قال التبريزي " ويروى (من لا يزل يستحمل الناس نفسه) فمن روى يسترحل أراد يجعل نفسه كالراحلة للناس يركبونه ويذمونه ، ومن رواه " يستحمل أراد يحمل الناس على عيبه "(١)

والبيت لا يتناسب مع معاني القصيدة الداعية إلى الصلح والسلام ، ونبذ الحرب والقتال ، وقد فكرت كثيرًا محاولًا ربط هذا البيت بحدث من أحداث القصيدة أو بشخص من الأشخاص الذين جرت تلك الأحداث على أيديهم ، ولكني لم أستطع أن أضيف معنى البيت إلى واحد من الأحداث التى اكتنفتها، أو شخصية من شخصياتها ، وقد جاء فى شرح التبريزي للقصائد العشر " قال لي أبو زيد : قرأت

---

(١) شرح القصائد العشر ص١٢١ .

هذه القصيدة على أبي عمرو بن العلاء فقال لي : قرأت هذه القصيدة منذ خمسين سنة فلم أسمع هذا البيت إلا منك".[١]

ومن يغترب يحسب عدوا صديقه

ومن لم يكرم نفسه لم يكرم

" أى من اغترب حسب الأعداء أصدقاءه ، لأنه لم يجربهم ، فتوقفه التجارب على ضمائر صدورهم ، ومن لا يكرم نفسه بتجنب الرذائل لم يكرمه الناس " . [٢]

ولاشك أن هذا البيت يتسق تمام الاتساق مع معاني القصيدة والأحداث التى اكتنفتها ، فالشطر الأول يشير فيه زهير إلى ما كان من ورد بن حابس يوم نزوله على حصين بن ضمضم ظانا فيه المودة والصداقة فإذا به ينقلب عليه وينطلق من خسيسته التى طوى كشحه عليها ويقتله.فورد بن حابس اغترب عن بلده ، وظن حصينًا صديقا مع أنه كان يضمر فى نفسه عداوة بني عبس الذين قتلوا فى الحرب أباه ثم أخاه هرمًا .

والشطر الثاني من البيت يوافق حال حصين وأمثاله ممن يغدرون أو يضمرون فى أنفسهم مالا ينبغي من الرذائل والخسائس ، فهم لم يكرموا أنفسهم ولم يجاهدوها بتحمل المكارم فكانوا أهلًا لإهانة الناس لهم وترك تكريمهم .

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه :

يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

ظاهر البيت يناقض مراد زهير فى السعي للصلح وإطفاء نار الحرب؛ إذ

---

(١) نفسه ص١٢١ .

(٢) شرح المعلقات التسع ص٢١١ .

معناه العام كما ورد عند التبريزي: " من لا يمنع عن عشيرته يذل ، قال الأصمعي: من ملأ حوضه ثم لم يمنع منه غشى وهدم ، وهو تمثيل أي من لان للناس ظلموه واستضاموه " . (١)

والتمثيل هنا فى قوله عن حوضه إذ المراد به الحمى وكل ما يجب على المرء حراسته وحمايته وحفظه ، وقوله "بسلاحه" يشي بأن على المرء أن يكون فى تمام اليقظة دائمًا، حاملًا سلاحه، مستعدًا للتنكيل بمن يحاول الاعتداء عليه أو على عشيرته وخاصته ، وقوله "يهدم" الواقعة فى جواب الشرط تجعل هذا الذى يحمل السلاح يزداد يقظة وعليه ألا ينام إلا بعين مفتحة ، وألا يضع سلاحه من يده وإلا أدى به إلى نقص بنائه وكسر ظهره وإهدار دمه، وكل هذه المعاني تفيدها كلمة "يهدم.(٢) وإذا أضيف إليها ما فى التضعيف من معنى أفاد ضياعه وضياع عشيرته ضياعًا كاملًا !!

هذا المعنى قد يكون صالحًا فى الحياة لكني أظنه لا يصلح فى مثل هذا المقام الداعي إلى الصلح بعد حرب قضت على الأخضر واليابس بين أبناء العمومة من عبس وذبيان ، بل إن صلاحيته للحياة مستبعدة ، وانظر إن شئت قول ابن شرف القيرواني تعليقًا على البيت وعلى شطره الثاني :

" وقد تجاوز هذا الحق إلى الباطل ، وبنى قولًا ينقضه جريان العادة وشهادة المشاهدة ، وذلك أن الظلم وعرة مراكبه مذمومة عواقبه فى جاهليته وإسلامنا فحرَض فى شعره عليه ، وإن كان إنما أشار فى شعره إلى أن الظالم يرهب فلا يظلم فهذا قياس يفسد وليس يطرد ... ".(٣)

---

(١) شرح القصائد العشر ص١٢١ ، ١٢٢ .

(٢) انظر : معنى هدم فى القاموس المحيط .

(٣) مسائل الانتقاد ــ ابن شرف القيرواني ــ ص٨ ، ترقيم آلي .

ولكن هل يمكن أن ينظر إلى البيت من زاوية أخرى؟فدعوة زهير إلى منع الناس عن الحوض بسلاح مفادها أن هؤلاء الناس أتوا معتدين ظالمين يهدفون إلى تهديم ما بين يدي القوم من مال وعزة فكان لابد من مقابلتهم بما يردعهم ، هذا فى حال إتيانهم إليهم وإلى عقر دارهم، وهذا معنى مطروق عند العرب كثيرًا ومن مثله قول الشاعر :

تعدو الذئاب على من كلاب له

وتتقى مربض المستأسد الحامي[1]

وعلى هذا يكون استعماله للظلم بمعنى الدفاع عن النفس وإن كان فيه خفاء اللزوم بين المعنيين وضعف العلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي الذى أراده الشاعر .

وهل يمكن النظر إلى الشطر الثاني على أنه من قبيل المشاكلة ؟ كما جاء فى قوله تعالى : (وجزاء سيئة سيئة مثلها)[2] ، ويكون زهير استعمل الظلم فى معنى معاقبة الظلم بالظلم ، أو ملاقاة الظلم بظلم يكسره ويرد صاحبه خائبًا !!

وفى هذا يقصد زهير إلى أن دعوته للسلم والصلح ليس دعوة الخور والجبن والوقوف أمام الظلم مكتوف اليدين ، وإنما هناك من المواقف ما يدعو إلى التصدي للعدوان ، وهذا لا عيب فيه ، ولعله فى هذا يشير إلى بني عبس عندما انتفضوا بسبب مقتل ورد بن حابس بعد الصلح وأنهم غير معيبين لجمعهم رجالهم وعتادهم لرد عدوان حصين والأحلاف يوم غدر بنزيله وضيفه !!

---

(١) البيت للنابغة الذبياني، انظر: الدر الفريد وبيت القصيد، محمد المستعصمي ٥/ ٣٧٣، ط دار الكتب العلمية، بيروت لبنان .

(٢) سورة الشورى آية (٤٠) .

ومع ذلك فمثل هذا الصنيع لا يصلح اللجوء إليه إلا فى أضيق الحدود ، وعلى المرء أن يتصف دائمًا بالرفق واللين والمداراة أو بالمصانعة التى عبر عنها زهير بقوله :

ومن لا يصانع فى أمور كثيرة

يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

فى هذا البيت دعوة إلى مصانعة الناس ومداراتهم وهذا يناسب الدعوة إلى الصلح ، ويوضح دعوته السابقة عن الذود عن الحمى بالسلاح ، فليست الدعوة الأولى على علاتها ، ولا يصح أن يلجأ إليها إلا بعد الصبر على أذى الناس وملاينتهم ليس مرة واحدة بل "فى أمور" ، ولاحظ ما فى كلمة أمور من الدلالة على الكثرة ثم ما فيها من إبهام فهي ليست أمورًا معينة أو محددة بل أمور كثيرة غير متناهية ، وأكد هذه الكثرة بالصفة التى ذكرها "كثيرة" .

وإن كان فى البيت السابق ذكر نتيجة ترك الذود والحماية فى قوله " يهدم " فإنه هنا أتى بفعل ثم عطف عليه فعلا آخر "يضرس " و " يوطأ " ويدل الفعل الأول على القوة والخشونة وسمى الضرس من الأسنان بذلك لقوته على سائر الأسنان . [١]

وإذا أضيف إلى هذا ما فى التضعيف من زيادة القوة ثم تضريسه سيكون بأنياب تمزقه تمزيقًا ، ثم الفعل "يوطأ" بمعنى يداس الدالة على الذلة والإهانة ، " وأصله : أن من صارعته أو قاتلته فصرعته أو أثبته فقد وطئته ".[٢]و "المنسم" بكسر السين : طرف خف البعير والفيل والحافر، وفى حديث علي كرم الله وجهه:

---

(١) انظر : مقاييس اللغة جـ٣ ص٣٩٥ .

(٢) القاموس المحيط جـ١ ص١٩٦ .

وطئتهم بالمناسم أي بأخفافها ، ومعنى المنسم أيضًا الطريق . [١] فكأنه يريد أن يقول: من لم يصانع الناس ويلاينهم سيكون جزاؤه الذلة والإهانة ، وسيلقي به فى طريق السابلة يطؤونه ويدوسونه جيئة وذهابًا .

وفى الأحداث التى اكتنفت القصيدة مصانعات ظهرت من الساعيين يوم عقلا من لم يقتلا ، ويوم عقلا من قتل قبل الحرب حرصًا منهم على إتمام الصلح بأي طريق كان؛ ولو كان طريقًا فيه إجحاف بهم ، كما كانت هناك مصانعة من الحارث لبني عبس يوم أرسل إليهم دية ورد بن حابس وأرسل معها ولده ليقتلوه قصاصًا إن هم رفضوا الدية .

وفى قوله يضرس بأنياب ... شبه قوي بقوله سابقًا فتعرككم عرك الرحى بثفالها ، فكأنه بهذا البيت يخاطب مثيرى الحرب محذرًا ومنفرًا ومذكرًا بسوء العواقب الوخيمة التى تحيط بهم إن لم يلاينوا ويصبروا ويصابروا الناس ، وفى البيت ترق حيث جعل هناك عرك الرحى من نتائج الحرب الصريحة ، أما هنا التضريس بالأنياب والوطأ بالمنسم مترتب على ترك الملاينة والرفق ، فقد وصل بنا زهير إلى الدعوة إلى الرفق والمداراة بعد أن كانت دعوته لنبذ الحرب .

ومن يجعل المعروف من دون عرضه

يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

البيت من الوضوح بمكان ، وهو من أكثر أبيات الحكمة شهرة وأكثرها دورانًا على الألسنة ومراده "ومن اصطنع المعروف إلى الناس وقى عرضه وجعله وافرًا".[٢]ولكن ! ما المقصود بالمعروف ؟ هل هو بذل المال كما يتبادر إلى الذهن؟ أرى ذلك بعيدًا والسر فى هذا أن الحديث عن المال وبذله سبق فى بيت

---

(١) انظر : لسان العرب جـ١٢ ص٥٧٤ .

(٢) انظر : شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات . ص٢٨٧ .

قريب :

ومـــن يـــك ذا فضـــل فيبخـــل بفضـــله

علـــى قومـــه يســـتغن عنـــه ويـــذمم

إذًا فما مراده بالمعروف ؟ المعروف هنا هو القول الطيب الذى جاء مثله فى قولـــه : "ومعروف من القول" ، وهو الذى يدل عليه أصل الكلمة ، فأصل هذه الكلمة يدل على السكون والطمأنينة، ومن الباب العرف وهي الرائحة الطيبـــة لأن النفس تسكن إليها ، ومنه أمر معروف ، وقول معروف لأن من أنكر شيئًا توحش منه ، ونبا عنه [١] ، فالقول الطيب يجعل العرض وافـــرًا والقـــول الـــذى تنكـــره النفوس والقلوب يكون سببًا فى أن يسمع صاحبه مالا يحب من الشتم ، وبـــذلك يوافق البيت الذى سبقه الدال على ضرورة ملاينة الناس ومداراتهم ومصانعتهم ، ويلائمه بل يزيد عليه حيث جعل المعنى يزداد ويتطور إذ المطلوب هنا أن يـــأتي الإنسان بما زاد على الملاينة والملاطفة وهو الإحسان والقـــول الطيـــب والكـــلام الشافي للصدور والقلوب .

وحياة العرب وواقعهم لم يكن بهذا الحال الذى يتمناه زهير؛ أن يكون بين الناس رفق لا عنف معه ولين لا قسوة معه ومداراة ومصانعة ، ولما كان الأمـــر كذلك عبر عن مللله وسأمه لهذه الحياة الخشنة العنيفة وما يترتـــب عليهـــا مـــن تكاليف باهظة ومشقات فادحة ، فقال :

ســـئمت تكـــاليف الحيـــاة ومـــن يعـــش

ثمـــانين حـــولا لا أبـــا لـــك يســـأم

كان من أمنيات زهير أن يجد أحياء ومجتمعات ينتشـــر فيهـــا الملاينـــة

(١) انظر : مقاييس اللغة ٤ / ٢٨١ .

والمداراة والمصانعة ، ويكثر فيها قول المعروف والكلام الطيب حتى تبقى الأعراض وافرة ، ولا يتعرض واحد لأخيه بسب أو شتم وكان يتمنى أن يعود أصحاب الفضل على ذويهم وإخوانهم وأقوامهم حتى تدوم الصلات وينحسر التقاطع والتدابر ، لكن الحال لم يكن على ما يتمنى بل كان أسوأ من كل توقع ، إذ كثرت الحروب واشتعلت وضريت ، وطحنت أطرافها طحنًا وعاش الناس حياة كئيبة ملؤها الشر والسلاح والدم ، هذه الحياة لم يكن زهير ليرضى عنها فعبر فى هذا البيت عن مللله وضجره وغمه بهذه الأحوال وبما يترتب عليها من مشقات وتكاليف "سئمت تكاليف الحياة" لاسيما وأنه عاش دهرًا وعمرًا بلغ الثمانين ومن عاش هذا العمر فى هذه البيئة القاسية لابد له أن يسأم .

وجملة لا أبا لك اعتراض ، الأصل أن فيه دلالة على المدح ، وعلى الذم ، وهو فى هذا البيت " ليس فيه قبح " [١] وقد ذكر ابن الأثير قوله لا أبالك من الاعتراض الذى لا فائدة فيه وليس مؤثرًا فى هذا البيت حسنًا ولا قبحًا [٢].

وأعجبني من بين أقوال النقاد قول البغدادي : تقول العرب لا أبالك وهو يستعمل فى التفجع والتعجب [٣] ، وهو القول الذى يجسد حالة زهير الشعورية تجاه هذا المجتمع المتحارب المتطاحن الذى يضرس بالأنياب ويوطأ بالمناسم فهو يتفجع على إخوانه العرب وما نزل بهم ويعجب أن تستمر بينهم هذه المهالك .

إذن : ناء الناس بالتكاليف والمشقات وانتشرت بين أحياء العرب المهالك والأعطاب ؛ فقال زهير:

---

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ــ يحيى بن حمزة العلوي ــ جـ٢ ص٩٢، المكتبة العصرية ــ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ .

(٢) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ١٧٧/٢ــ المكتبة العصرية ١٤٢٠هـ

(٣) انظر : خزانة الأدب ٤ / ١٠٤ .

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب

تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

وقد ناسب هذا الحال = الذى تطاحن فيه الناس ، وأوردوا غمارًا تفرى بالسلاح وبالدم ، فقضوا منايا بينهم ثم أصدروا إلى كلأ مستوبل متوخم ، ناسب هذا الحال = أن يأتي بلفظ " المنايا " مجموعًا متناهيًا ليدل به على الكثرة ، وهذه المنايا " تخبط " أي تضرب لتسقط المضروب على الأرض صريعًا لليدين وللفم ، وفى "خبط" دلالة على: السير فى الليل على غير هدى . (١)

وقوله من تصب يدل على نزول هذه المنايا بهذا الأحياء واستقرارها بين جنباتها (٢) ، والعشواء من النوق التى كأنها لا تبصر ما أمامها فتخبط كل شيء بيديها ، قالوا وإنما يكون ذلك من حدة قلبها . (٣)

وقد أعجبني من ابن فارس قوله: " تخبط كل شيء "، هذا العموم والاستغراق هو الذى قصد إليه زهير أي أن المنايا الكثيرة جدًا لا تدع واحدًا دون أن تضربه، فمن نزلت به واستقرت مات ، ومن لم تستقر به نجا ، ولم ينج منها من تصلح به الحياة أو يسعد به الناس ، بل سيبقى المعمَرون والذين أصابهم الهرم ، وهؤلاء لا يشاركون فى الحروب أصلا، ومن رآهم من الفرسان المتصارعين تركهم دون أن يجهز عليهم؛ رحمة بهم وبشيخوختهم.

فكأن زهيرًا قصد إلى أن الحرب والمنايا قضت على كل صاحب قوة وتركت أصحاب العجز ، وانظر فى قول ابن فارس إلى قوله "كأنها لا تبصر" و "تخبط كل شيء" و " من حدة قلبها " لتفهم مراد زهير فهمًا صحيحًا دون أن

(١) انظر : مقاييس اللغة ٢ / ١٤١ ، والقاموس ١ / ٦٦٤ .

(٢) انظر : مقاييس اللغة ٢ / ٢١٧ .

(٣) مقاييس اللغة ٤ / ٣٢٣ .

يذهب بك فهمك إلى الحديث عن القضاء والقدر؛ إذ لم يكن من زهير قصد إلى هذا ، ولا يحتمله كلامه.

وقد وضَح ابن منظور مراد زهير فقال " يقول : رأيتها تخبط الخلق خبط العشواء من الإبل ، وهي التي لا تبصر ، فهي تخبط الكل لا تبقي على أحد، فممن خبطته المنايا من تميته ، ومنهم من تعلُه فيبرأ ، والهرم غايته ثم الموت " . (١)

هذا مراد زهير وليس ما ذهب إليه الشراح من أنه لا يعرف القضاء والقدر ، وهذا التعبير لم ينفرد به زهير بل ولم يسبق إليه حتى يرمى بما رمى به ، وإذا طلبت هذا التعبير فى كتب التراث العربي والإسلامي وجدت كثرة استخدامه، ومن ذلك:

قالوا " ومن أمثالهم السائرة : وهو يخبط خبط عشواء؛ يضرب مثلًا للسادر الذى يركب رأسه ولا يهتم لعاقبته، كالناقة العشواء التى لا تبصر فهي تخبط بيديها كل ما مرت به ، وشبه زهير المنايا بخبط عشواء لأنها تعم الكل ولا تخص ، ابن الأعرابي : العقاب العشواء التى لا تبالى كيف خبطت وأين ضربت بمخالبها كالناقة العشواء لا تدري كيف تضع يدها ".(٢)

إذًا مراد زهير العموم والاستغراق وليس من مراده ما ذهب إليه بعض الشراح ومن الغلط الحكم علي زهير بالغلط. وقول زهير هذا مناسب لحال القوم الذين ركبوا رؤسهم ولم ينظروا فى العواقب وعملوا على إشعال الحرب وأوردوا شر إيراد وأصدروا أقبح إصدار ، وكذلك المنايا فعلت كفعلهم ونكلت بهم شر تنكيل ومزقتهم شر ممزق .

---

(١) لسان العرب ــ خبط ــ ٧ / ٢٨١ .

(٢) لسان العرب ١٥ / ٥٧ .

ثم قال زهير فى معلقته وأبياته من الحكمة:

ومهمـــا تكـــن عنـــد امـــرئ مـــن خليقـــة

وإن خالهـــا تخفـــي علـــى النـــاس تعلـــم

ولاشك فى صلة هذا البيت بالمعلقة وبالأحداث التى اكتنفتها؛ فمن كان من خلائقه الكرم والمآثر؛ ظهرت مآثره وفضائله كما كان من الحارث وهرم، ومـــن كان من خلائقه الغدر والخيانة؛ علم الناس به وانكشف للناس أمره كما حدث من الحصين بن ضمضم ، ومن كان محبًا لقومه حريصًا عليهم محبًا لخيـــرهم؛ بـــان واتضح حاله ، ومن كان محبًا للسلام ... ومن كان محبًا للحرب ودمارها وخرابها ... ومن كان ... ومن كان ... إلخ ما يمكنك استنباطه من المعلقة .

وختم المعلقة بقولـــه :

وأعلـــم مـــا فـــى اليـــوم والأمـــس قبلـــه

ولكـــنني عـــن علـــم مـــا فـــى غـــد عـــم

والبيت شديد الارتباط بالبيت قبله فكأن سائلًا يسأل ألا يمكنك أن تتعـــرف على خلائق الناس ، قبل أن تصدر منهم أعمال تدل على خلائقهم تلك ؟ فأجاب أنا عم عن علم الغد لا علم لى به لأنى لم أره ، وفى البيت حسن تقســـيم ، إذ أنـــه جامع لأقسام الزمان الثلاثة ولا رابع لها . [١]

هذه وقفتي مع المعلقة التي تعرفنا خلالها على تحقق الوحدة تحققًا كاملًا؛ حيث التناسب والتلاؤم واضح بين فصول المعلقة، والارتباط وثيق بـــين أبيـــات القصيدة على النحو الذى رأينا خلال التحليل، بل والصلة قوية بين القصيدة أبياتا وفصولا والأحداث التاريخية التي اكتنفتها.

---

(١) انظر : الطراز لأسرار البلاغة وعلوم الإعجاز ٢ / ١٧١ .

ـــ وانظر : علم البديع ، عبد العزيز عتيق ـــ ص١٢٨ـــ ط دار النهضة العربية، بيروت ، لبنان.

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه .

وبعـــد ،،،

فهذا بحثي "الدقة التعبيرية والمفارقة التصويرية في معلقة زهير" انتهيت منه، وقد كان قراءة جديدة للمعلقة توصلت من خلاله إلى عديد من النتائج أجملها فيما يلي :

١ــ ارتباط المعلقة ارتباطًا وثيقًا بأحداث اكتنفت القصيدة مما يؤكد انبعاثها من مصادر واقعية تصور حياة العرب ، ومما يؤكد أنها نفس واحد، وفكرة واحدة، وموضوع واحد .

٢ــ أمكنني جعل القصيدة قسمين ، الأول منها خاطب فيه زهير بني عبس ، والثاني كان خاصًا ببني ذبيان، وقد جاءت مقدمة المعلقة ذات صلة قوية بالموضوع؛ بل جزء أساس من اجزائها، ومعبر عن أحداث واقعية .

٣ــ الحكم التى ختم بها قصيدته ذات صلة قوية بالمواقف والأحداث وهي صالحة لخطاب كلا الفريقين، بل صالحة لخطاب الناس فى كل عصر وفى كل مصر.

٤ــ حديث زهير فى المعلقة ووصفه لرحلة الظعائن حديث له صلة قوية بالواقع ، ومصور أتم تصوير؛ وأصحه لحال بني عبس يوم فروا بظعنهم من أعدائهم، وفيه إيحاء قوي بالتنفير من الحرب . وقد حرص زهير عند الحديث عن رحلة الظعائن أن يكشف عن حرصه على تخفي الرحلة وتباعدها عن الطرق الواضحة ، وما لاقت الظعن من صنوف المشقة والتعب وأراد بذلك تبغيض الحرب للناس وألا يزجوا بنسائهم فى المهالك والمعاطب .

٥ــ اعتمدت على كتب البلدان فى الكشف عن المراد ببعض المواضع والوديان ، وتوصلت إلى معان جديدة لم يقف عليها شراح المعلقة .

٦ــ أبرزت من خلال التحليل تقنية فنية اتكأ عليها زهير فى معلقته ، تلك التقنية لم يتحدث عنها من سبقني بتحليل المعلقة، ألا وهي [المفارقة التصويرية].

٧ــ جاءت تعبيرات زهير فى منتهى الدقة لتدل على مراده تمام الدلالة ، لاسيما فيما ساق من ألفاظ دالة على مدح الساعيين حيث كان قصده التفخيم والتعظيم لهما، والسمو بهما، وقد استعنت على بيان دقة تعبيره بكتب فقه اللغة ومعاجم العربية فكشفت عن معان لم تدون فى شروح الشعر .

٨ــ حرصت على إبراز التلاؤم والتناسب بين الأبيات المتتالية ، وبين الفصل والفصل الآخر؛ مما يدل دلالة واضحة على وحدة المعلقة وبعدها عن التفكك والاضطراب، واستطعت أن أبرز ما فى معاني زهير من تطور وترق ، وقد نفيت عن زهير اتهامه بالدعوة إلى الظلم، كما أبنت عن اشتراك أهل عصره معه في التأله، وأن زهيرا لم يتفرد بهذا المعنى.

والحمد لله أولا وآخرا، والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم؛ سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د/ عمر محمد عبد الرحيم محمد حمزاوي

مدرس الأدب والنقد

في كلية اللغة العربية بأسيوط

فهرس المصادر والمراجع

١ــ أساس البلاغة – الزمخشري- دار الكتب العلمية بيروت- الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٢ــ البحر المحيط في التفسير ، أبو حيان الأندلسي، ت صدقي محمد جميل ، ط دار الفكر بيروت – لبنان ١٤٢٠هـ.

٣ــ البصائر والذخائر- أبو حيّان التوحيدي ت وداد القاضي ط الأولى – دار صادر بيروت ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

٤ــ البلدان ــ لليعقوبي ــ ط دار الكتب العلمية ، بيروت ــ الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ .

٥ــ تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر ــ لابن أبي الأصبع ت/ حفني شرف ــ ط لجنة إحياء التراث الإسلامي.

٦ــ التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل ، أبوحيان الأندلسي ، ت حسن هنداوي ، ط دار كنوز إشبيليا، الطبعة الأولى .

٧ــ تفسير الألوسي – ت علي عبد الباري عطية، ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان – الأولى ١٤١٥هـ .

٨ــ تفسير حدائق الروح والريحان- محمد الأمين الهرري- ط دار طوق النجاة- بيروت- الأولى ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.

٩ــ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب- الثعالبي ط دار المعارف – القاهرة.

١٠ــ الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي – أبو الفرج النهرواني . ط دار الكتب العلمية – بيروت لبنان- الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ- ٢٠٠٥م.

١١ــ حياة الحيوان الكبرى للدميرى ــ ط دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان ــ الثانية ١٤٢٢هـ .

١٢ــ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي تحقيق وشرح عبد السلام هارون ط مكتبة الخانجي القاهرة الطبعة الرابعة ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
١٣ــ خاص الخاص ــ الثعالبي ــ ط دار مكتبة الحياة ــ بيروت لبنان.
١٤ــ دلائل الإعجاز ت الشيخ شاكر ط المدني بالقاهرة – الثالثة ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢م.
١٥ــ ديوان زهير بن أبي سلمى – شرحه واعتنى به: حمدو طماس – ط دار المعرفة – بيروت لبنان.
١٦ــ ديوان عنترة بن شداد ــ ط الآداب ، بيروت ، لبنان، ١٩٨٣م
١٧ــ الذخائر والبصائر- عبد الرحمن البرقوقي ط مكتبة الثقافة الدينية بمصر.
١٨ــ الرسائل لأبي عثمان الجاحظ ، ط دار ومكتبة الهلال ــ بيروت .
١٩ــ زهر الأكم في الأمثال والحكم – الحسن بن مسعود اليوسي ط دار الثقافة – المغرب/ ط الأولى ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.
٢٠ــ شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية، محمد ابن محمد بن حسن شرَّاب، ط مؤسسة الرسالة- بيروت – لبنان – ط الأولى .
٢١ــ شرح المعلقات السبع للزوزني ط دار إحياء التراث العربي، الأولى ١٤٢٣ه ٢٠٠٢ م.
٢٢ــ شرح المعلقات التسع للشيباني. ط مؤسسة الأعلمي بيروت لبنان.
٢٣ــ شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ــ ابن الأنباري ــ ت/ عبدالسلام هارون ــ ط دار المعارف ــ الخامسة .
٢٤ــ شرح القصائد العشر للخطيب التبريزي ، تعليق: السيد محمد خضر ، ط مكتبة الثقافة الدينية.
٢٥ــ الشعر والشعراء- ابن قتيبة – ط دار الحديث بالقاهرة ، ١٤٢٣هـ

٢٦ــ الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء ــ د/ محمد أبو موسى ، ط مكتبة وهبة ــ الأولى ــ ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م .

٢٧ــ الصناعتين في الكتابة والشعر ــ العسكري ، ت/ البجاوي أبو الفضل إبراهيم ــ ط المكتبة العصرية ــ بيروت ، ١٤١٩هـ .

٢٨ــ الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ــ يحيى بن حمزة العلوي ، المكتبة العصرية ــ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ .

٢٩ــ علم البديع ، عبد العزيز عتيق – ط دار النهضة العربية ، بيروت ــ لبنان.

٣٠ــ علم العروض والقافية – عبدالعزيز عتيق – ط دار النهضة العربية ، بيروت، لبنان.

٣١ــ علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني، د/ محمد أحمد قاسم، د/ محيى الدين ديب – المؤسسة الحديثة للكتاب طرابلس – لبنان ط الأولى ٢٠٠٣م.

٣٢ــ العقد الفريد ــ ط دار الكتب العلمية ــ بيروت ، ط الأولى ١٤٠٤هـ .

٣٣ــ عن بناء القصيدة العربية الحديثة ، د/ علي عشري زايد ، ط مكتبة ابن سينا للطباعة والنشر ، ط الرابعة ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .

٣٤ــ عيار الشعر . ابن طباطبا ، ت / عبد العزيز المانع ــ ط مكتبة الخانجي ــ القاهرة .

٣٥ــ فحولة الشعراء- الأصمعي- ط دار الكتاب الجديد، بيروت ط الثانية ١٤٠٠ هـ- ١٩٨٠م.

٣٦ــ الفروق اللغوية – أبو هلال العسكري- ط دار العلم والثقافة والنشر والتوزيع- القاهرة.

٣٧ــ فى تاريخ الأدب العربي ، علي الجندي ــ ط مكتبة دار التراث ١٤١٢هـ / ١٩٩١م .

٣٨ــ القاموس المحيط ،لمجد الدين الفيروزآبادي – ط مؤسسة الرسالة للطبع والنشر والتوزيع – بيروت لبنان، الثامنة ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م

٣٩ــ الكامل في اللغة والأدب – أبو العباس المبرد ، ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم ــ ط دار الفكر العربي ــ القاهرة ، الثالثة ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .

٤٠ــ لباب الآداب للثعالبي ــ ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، الأولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .

٤١ــ لسان العرب، جمال الدين بن منظور ط دار صادر بيروت ، الثالثة ١٤١٤هـ.

٤٢ــ مجمع الأمثال- للميداني ت محمد محيي الدين عبد الحميد- ط دار المعارف –بيروت لبنان

٤٣ــ مختارات شعر العرب لابن الشجري ضبط وشرح / محمود حسن زناتي ــ ط الاعتمار ــ مصر ــ الأولى ١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م .

٤٤ــ مسائل الانتقاد ــ ابن شرف القيرواني ، ترقيم آلي .

٤٥ــ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ــ أبو عبيد الله البكري الأندلسي ــ ط عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ .

٤٦ــ معلقة زهير في ضوء نظرية النظم د/ أحمد محمد علي – ط دار الحديث- القاهرة.

٤٧ــ مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، فخر الدين الرازي – ط دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان – الثالثة ١٤٢٠.

٤٨ـ المستقصى في أمثال العرب- الزمخشري- ط دار الكتب العلمية -بيروت لبنان – الثانية ١٩٨٧م.

٤٩ـ المسالك والممالك ـ الإصطخرى ـ ط دار صادر، بيروت ـ عام٢٠٠٤م.

٥٠ـ المعاني الكبير في أبيات المعاني- ابن قتيبة- نسخة مصورة لدار الكتب العلمية بيروت – لبنان- الطبعة الأولى.

٥١ـ مقاييس اللغة أحمد بن فارس ت عبدالسلام هارون- ط دار الفكر١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

٥٢ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء حازم القرطاجني ، المكتبة الشاملة (ترقيم آلي).

٥٣ـ نثر الدر في المحاضرات- الرازي – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان- الأولى ١٤٢٤ هـ- ٢٠٠٤م.

٥٤ـ نهاية الأرب في فنون الأدب- النويري – ط دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة- الأولى ١٤٢٢هـ.

فهرس موضوعات البحث

م	الموضوع	الصفحة
١	مقدمة البحث	٧١١٥
٢	إطلالة عامة على المعلقة	٧١١٧
٣	أولا : الأحداث التي اكتنفت المعلقة	٧١١٧
٤	ثانياً : نظرة إجمالية في المعلقة	٧١١٩
٥	سياحة تفصيلية في جنبات المعلقة	٧١٢٣
٦	أولا : خطاب زهير لبني عبس	٧١٢٣
٧	ثانياً :خطاب زهير للأحلاف وذبيان	٧١٥١
٨	حكم زهير وصلتها القوية بالمعلقة	٧٢٠٢
٩	خاتمة البحث	٧٢٠٣
١٠	فرس المصادر والمراجع	٧٢٠٥
١١	فهرس موضوعات البحث	٧٢١٠